قـــد رضينا ببيضةَ فاسدةً عِوَضاً منه إذ البيع نَجَزْ

* * *

[حكاية أبى حنيفة والإسكاف]

وكان لأبى حنيفة رحمه الله جارٌ إسكاف بالكوفة ، يعمل نهاره أجمع ، فإذا أجنّه الليل رجع إلى منزله بالخمر ولحم أو سمك ، فيطبخ اللحم أو يشوى السمك ، حتى إذا دبّ الشراب فيه رفع عقيرَته يُنشد :

أضاعُونى وأىّ فتى أضاعُوا ليوم كريهة وسِدَاد ثَغْرِ

فلا يزال يشرب ويردّد هذا البيت ، حتى يغلبَه النوم .

وكان أبو حنيفة رحمه الله يصلّى الليل كلّه ، ويسمع جلبته وإنشاده ، فقد صوته ليالى ، فسأل عنه فقيل له : أخذه العسس منذ ثلاث ليال ، وهو محبوس ، فصلّى الفجر وركب بغلته ، ومشى فاستأذن على الأمير ، فقال : ائذنوا له ، وأقبلوا به راكباً ، ولا تَدَعوه ينزل حتى يطأ البساط ، ففُعِل به ذلك ، فوسّع له الأمير مجلسَه ، وقال له : ما حاجتك ؟ فقال : لى جارٌ إسكاف أخذه العسس منذ ثلاث ليال ، فتأمر بتخليَته ؟ فقال : نعم ، وكلّ مَنْ أُخِذَ من تلك الليلة إلى يومنا هذا ، ثم أمر بتخليتهم أجمعين . فركب أبو حنيفة وتبعه جاره الإسكاف ، فلما أوصله داره ، قال له أبو حنيفة : أتُرانا يا فتى أضعناك ؟ قال : لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن صحبة الجوار ورعاية الحق ، ولله علىّ ألاّ أشرب الخمر أبداً ، فتاب ولم يَعُد إلى ما كان عليه[1] .

[من حكايات الجوارى والغلمان]

ومما يوافق هذا الموضع فى المقامات من ظرف الحكايات التى تضمنت بيع

(١) الخبر فى الأغانى ١ : ٤١٤ .

المماليك عند الضرورات ، وما للأجواد من جزيل الهبات ، مما ذكروا من أحسن أخبار الخلفاء أن جعفر بن يحيى عرض عليه فى بعض متوجّهاته مملوك من مماليك رجل جفاه السلطان ، فقبض ماله ، وأمر ببيع مماليكه ، فعُرض عليه من جملتهم غلام كما طرّ شاربه ، أجمل الناس ، يدير بين فكّيه لسانا أبين من الصبح . قال جعفر : فقلت له : ما اسمك ؟ قال : ماهر ، فقلت له : وما صنعتك ؟ قال : الأدب والغناء والشعر وما شئت من بعد ، فسألته عن ثمنه ، فقال : خمسمائة دينار للضرورة ، قال : فأدّيت ثمنه ، وسألته أن يُسمعَنِي شيئاً من غنائه ، فأخذ العُود وغنّى :

حلتُمْ جبالَ الحُبّ فوق وإنّنى ... لأعجز من حمل القميص وأضعفُ
ظفرتمْ بكتمانِ اللسان فمن لكمْ ... بكتمان عين دمعُها الدّهرَ يذرِفُ!

فأطربنى غناؤه ، وشجانى فأجزته ، ووهبت له وخلعت عليه ، وأمرته بمعادلتى . فلما اجتزتُ منزل مولاه بمقدار ميل ، أنشأ يقول :

وما كنتُ أخشى معبدا أن يبيعَنى ... بشىء ولو أضحتْ أنامُلُه صِفْرا
أخوهم ومولاهمْ وحاملُ سرّهِمْ ... ومن قد ثوى فيهمْ وعاشرهم دهرَا
أشوقاً ولمّا تمضِ لى غير ساعةٍ ... فكيف إذا خبّ المطىّ بناشهرا!

فقلت : يا غلام ، أتعرف منزل مولاك من ها هنا ؟ فقال : هيهات ، وهل تخفى معالم الصبّ ! فقلت : اذهب فأنت حرّ لوجه الله تعالى ، ووهبت له ألف دينار ، فقال لى زميلى : أمثل هذا يُعتق ؟ فقلت : أوَمِثلُه يُملَك ! فولّى وهو يقول :

لا يوجدُ الخيــر إلا فى معادنه ... والشرّ حيث طلبت الشرّ موجودُ

وحدّث ابن عائشة قال : كان لرجل من قَيْس عَيْلان جارية ، وكان

بها معجبًا ، ولها مكرِمًا فأصابته حاجة وجهد ، فقالت له : لو بعتنى فإن نلت طائلا عدت به عليك ، فعرضها للبيع ، فعرضت على عمر بن عبد الله بن مَعْمر المذحجى ، فأعجبته فاشتراها بمائة ألف درهم ، فلما مضت لتدخل القصر ودّعت مولاها وأنشدته :

هنيئاً لك المالُ الذى قد أصبتَه ... ولم يبق فى كفّى إلا تفكُّرِى
أقول لنفسى وهى فى كرب غشيةٍ ... أقلّى فقد بان الحبيب أو اكثرِى
إذا لم يكن للوصل عندك حيلة ... ولم تجدِى بدّا من الصّبر فاصبرِى

فأجابها مولاها :

فلولا قعود الدهر بى عنك لم يكنْ ... لفرقتنا شىء سوى الموت فاعذرِى
أموبُ بحزنٍ من فراقك موجعٍ ... أناجى به قلباً طويل التفكّر
عليك ســـــلام لا زيارة بيننا ... ولا وَصْلَ إلا أن يشاء ابنُ مَعْمَرِ

فقال ابن معمر : قد شئت ، خذ بيدها فهى لك وثمنها .

• • •

قال : فلمّا وَعى الشّيخ أبياتَهُ ، وعَقَل مُناغَاتَهُ ، تنفّسَ الصُّعداء ، وَبكَى حتّى أَبْكَى البُعَدَاء ؛ ثمّ قال لى : إنّى أحلُّ هذا الغلام محلّ ولَدِى ، وَلاَ أُمَيِّزُهُ عن أفلاذِ كَبِدِى ؛ ولولا خلُوّ مُراحِى ، وخُبوّ مصْباحِى ؛ لَمَا دَرَجَ عن عُشّى ، إلَى أن يُشَيِّع نعشى ، وقَدْ رأيتُ ما نَزَل به من لَوْعَةِ البَيْن ، والمؤمنُ هَيْنٌ لَيْن ، فهلْ لك فى تَسْلِيَةِ قَلْبِهِ ، وتَسْرِيَةِ كَرْبِهِ ؛ بأن تعاهِدَنى عَلَى الإقالةِ فيه مَتَى اسْتَقَلْتُ ؛ وألاَّ تَسْتَثْقِلَنِى إذا ثَقُلت ؛ فنى الآثارِ

المُنْتَقَاة ، المَرْوِيّة عن الثِّقاةِ : مَنْ أَقالَ نادماً بيعَتَه ، أَقالَهُ اللهُ عَثْرَتَه .

قال الحارثُ بن هَمام : فوعَدْتُهُ وَعْدًا أَبْرَزَهُ الحَيَاء ، وفى القلبِ أَشْياء ، فاسْتَدْنى حينئذٍ الغُلامَ إليْه ، وقَبَّلَ ما بَيْنَ عَيْنَيْه ، وأنشدَ والدَّمْعُ يَرْفَضُّ من جَفْنَيهِ :

خَفِّضْ فَدَتْكَ النَّفْسُ ما تُلاَقِي
مِنْ بُرَحاء الوجْدِ والإشفاقِ
فَمَا تَطولُ مُدَّةُ الفِراقِ ولاتِنى ركائبُ التَّلاَقِي
* بحُسْنِ عَوْنِ القادِرِ الخلاَّقِ *

• • •

قوله : عقل مناغاتَه ، أى فهم كلامَه ، والمناغاة تكليم الطفل بما يهوَى ويفرح به ، فإذا رَدَّدَ الصبىّ كلامك أوحاكَ فقد ناغاك . الصُّعَدَاء : ارتفاع نَفَس المهموم . أفلاذ : قِطَع ، يريد أولاده ، والفَلْذة : قطعة من الكبد ، ولِفَرْط الإشفاق به والمحبة فى الولد ، يخاطبه أبواه بقلبى وكبدى . وقالوا : أولادنا أكبادنا ، وقال الشاعر :

وإنما أولادُنا بيننَا أكبادُنا تمشى على الأرْضِ

مُراحى : موضع إبلى ودوابِّى ، وكنى بخلوّ المراح عن الفقر وذهاب المال . درج : مشى . لوعة البين : حُرْقة الفراق . هَيْن لَيْن ، هما مع الازدواج مخففتان ،

فإن أفرِدتا شدّدتا . قوله : لمـا دَرَج عن عُشِّى ، يقول: لولا الفقر ما بعتُه مادمتُ حيًّا. وتسرية كربه : إزالة همّه . المنتقاة : المختارة. المدوّنة: المكتوبة المجموعة ، والحديث معروف من طريق أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ أقال نادماً بيعتَه أقاله الله عثرته» ، أى عفا عن زَلّته . أبرزه : أظهره ، ويريد بقوله : وفى القلب أشياء : أنه أضمر ألاَّ يقيله أبدا . يرفضّ : يسقط متفرّقا . خَفَض : سَكّن . بُرَحاء : شدّة . الوجد : الحزن . الإشفاق : الخوف . تَنِى : تَفْتُر .

• • •

ثمّ قال له : أستَوْدِعكَ مَنْ هُوَ نِعْمَ المولَى . وشمَّرَ ذَيْلَه وَوَلَّى . فلبثَ الغُلامُ فِى زفيرٍ وعَويل ، رَيْثَما يَقْطَعُ مَدَى ميل. فلما استَفاق ، وكفكفَ دَمْعَه المُهْرَاق ، قال: أتَدْرِى لِمَ أعْوَلْتُ وعَلامَ عَوَّلْتُ ؟ فقلتُ : أظُنُّ فِرَاق مَوْلاكَ ، هو الذى أبْكاكَ . فقال : إنَّكَ لَفِى وادٍ ، وأنا فى وادٍ ، ولَكَمْ بين مُريدٍ ومُراد ، ثم أنشد :

لَمْ أبْكِ واللهِ عَلَى إلْفٍ نَزَحْ
وَلاَ عَلَى فوتِ نعيمٍ وفَرَحْ
وإنَّمَا مَدْمَعُ أجفانِى سَفَحْ عَلَى غَبِىِّ لحْظُهُ حِينَ طمحْ
وَرَّطَهُ حَتَّى تعنَّى وافتَضَحْ
وضيَّعَ المنقُوشَةَ البِيضَ الوَضَحْ

وَيْكَ أَمَا ناجَتْكَ هاتيكَ المُلَحْ
بأَنّني حُـرٌّ وبيعِي لَمْ يُبَـحْ
* إذْ كانَ فى يُوسُفَ معنًى قَدْ وَضَحْ *

* * *

زَفِير: أنفاس مرتفعة . عويل: بكاء . ريث: قَدْرَ. مدَى : غاية . والميل : قَدْر مدّ البَصر من الأرض ، ويقال إنه ألفُ خطوة من خُطا البعير ، والفرسخ: ثلاثة أميال، والبريد أربعة فراسخ. استفاق: استراح وخفّ مايجده . كفكف : ردّ وأذهب . المُهَراق : المصبوب . أعولت : بكيت بصوت عالٍ ، وأعول إعوالاً : صاح ، ورفع صوته ، وعوّلت على كذا اتّكلت عليه ، وعلى الله معوّلى اتّكالى ، وقال الشاعر :

* ولَيْسَ على رَيْبِ الزّمان معوّلُ *

كم بين مُريد ومُراد ، يريد أنّهما متقاربان فى اللفظ ، متباعدان فى المعنى ، لأنّ المريد فى الشيء المحبّ فيه ، والمُراد الشيء المطلوب ، وهو المحبوبُ ، فأنت قد تُريد الشيء فتُمنَعه، وغيرُك قد يراد له فيأباه ولا يريده ، فاللفظان متضادّان ، فيقول: التبس عليك سرّ بكائى فظننتَ أنه على فراق مولاى . فتفطن الآن أنّه على سُخْف عقلك ، كما التبس اللفظان على غير ناقد ، فإذا تفطّن لهما تباعدا عليه ، والمريد عند أهل الإرادة المبتدى ، والمُراد المنتهى ، فالمريد هوالذى نُصب للتعب والقساة ، والمراد الّذى لقىَ الأمر من غير مشقة ، فهو مرفوق به مرفّهٌ ، وقيل : المريد متحمِّل والمراد : محمول .

الجنيد: المريد تتولاّه سياسة المعلّم، والمراد تتولاّه رعاية الحق، لأن المُريد يسير، والمراد يطير ، فمتى يلحق السائر الطائر !

القُشيريّ : كلّ مريد فى الحقيقة مُراد، لأنه إذا أراده الحق للخصوصية ، وفقِه للإرادة ، ولـكنهم فرقوا بينهما .

قوله : إلف ،أى صاحب . نَزَح : بَعُد . سَفَح : جرى . غبيّ : جاهل . لَحظه : نظره . طمح : ارتفع. ورّطه : أنشبه ، والوَرْطه: أهْوِية تـكون فى رأس الجَبَل يشقّ على مَنْ وقع فيها الخروجُ منها. وتورّطت الماشية: وقعتْ فى الوَرْطة ، قال طُفيل :

تهابُ طريقَ الحق تحسب أنه وُعُورٌ وراطٌ وهو بَيْداء بلْقَعُ(١)

وقيل :الورطة : الوحْل تقع فيه الغنم، فلا يمكنها التخلّص، ثم ضرب مثلاً فى كلّ شدّة يقع فيها الإنسان،وأورطت فلانا فتورّط هو ، أى وقع فيما يعسُر التخلّص منه .

أبو عمرو : الوَرْطة الهلـكة ، قال الرّاجز :

إن تأت يومًا مثلَ هذى الخُطّه تلاقِ من ضَرْبِ نمير وَرْطَه(٢)

قوله :تعنّى ، أى تعب . افتضح: اشتهر،والوَضَح :الشديدة البياض النقية ، أى ضيّع الدراهم المنقوشة البيض ، والوضَحُ : البيان والضوء والغُرّة والفضّة والدرهم الصحيح ، وقيل : إنه وصف الدراهم بالمصدر ، كما يقال : امرأة زُورٌ وكَرَم . ويك: عَجَبًا لك. وقوله: هاتيك، يقال للمذكّر: ذا ، وهو للقريب،وذاك لما هو أبعد ، وذلك لأبعد الثلاثة ، وللمؤنث ذه وذى وذ ، بلاياء ، وتاوتى وهى للقريبة،وتيك للتى هى أبعد منه ، وتلك وتالِك لأبعدهنّ ، وتدخل ها التنبيه على كلّ ماليس فيه لام ، لأن اللام موضوعة للبعيد ، وها موضوعة للقريب ، فلا يجمع

(١) البيت فى اللسان ـ ورط .
(٢) اللسان (ورط) وفى ط « يمير » ، وصوابه من اللسان .

بينهما ، نحو هذا وهذاك وهاتا ، وشاهده :

* ولَيْستْ دارُنا هاتا بدارِ *

وهذه وهذى وهذِ وهاتيك ، وشاهده قولُ ذى الرُّمة :

قد احتَمَلتْ مىٌّ فهاتيك دارُها بها السُّحم تَرْدى والحَمامُ المطوَّقُ[1]

قوله : لم يبح ، أى لم يجعل مباحاً .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة أنا خصمُهم ، ومَنْ كنت خصمَه خصمتُه : رجل عاهد ثم غدر ، ورجل باع حرًّا ، ورجل استأجر أجيراً فلم يوفّه أجره » . وَضَح : تبيّن .

. . .

قال : فتمثَّلتُ مقالَهُ فى مِرْآة المُدَاعِبِ ، ومعرِض المُلاعِب ، فتصلّب تَصلُّبَ المُحِقِّ ، وتبرّأ مِنْ طينة الرِّقّ . فجُلْنا فى مُخاصَمة ، واتّصلَتْ بمُلاكَمة ، وأفضتْ إلي مُحاكَمة : فلمّا أوْضَحْنا للْقَاضِى الصُّورةَ ، وتَلَوْنا عَلَيْه السُّورَةَ ، قال : ألاَ إنَّ مَنْ أَنْذَرَ ، فقدْ أَعذَر ، ومَنْ حَذّرَ كَمَنْ بَشّر . ومَنْ بَصَّر فما قَصَّر ؛ وإنَّ فيما شَرَحْتُماه لَدَليلاً عَلَى أَنَّ هذا الغلامَ قدْ نَبّهك فَمَا ارعَوَيْتَ ، ونَصَحَ لَكَ فما وَعَيْت . فاسْتُرْ دَاء بَلَهِك واكْتُمْهُ ، ولُمْ نَفْسَكَ ولاَ تَلمْهُ ، وحَذَارِ من اعْتِلاَقِهِ ، والطّمَع فى استِرْقَاقه ، فإنَّهُ حُرُّ الأدِيم ، غيرُ معرَّض للتّقْوِيم .

---

(١) ديوانه ٣٩٠ . قال فى شرحه : « السحم : السود ، يعنى الغربان . ترددى ، أى تذهب . والغراب لا يستطيع المشى . ويروى : « بها السحم فوضى » .

وقد كان أبُوه أخْضَرَه أمْسِ ، قُبَيْلَ أفُولِ الشَّمْسِ ، واعْتَرَفَ بأنَّه فَرْعُهُ الَّذِى أنْشَأهُ ، وألاّ وارثَ سِواه ، فقلت للقاضِى : أوَ تعرفُ أباه ، أخزاه الله ! ، فقال : وهَلْ يُجْهَلُ أبو زيدِ الَّذِى جُرْحُهُ جُبَار ، وعند كُلِّ قاضٍ له أخبارٌ وإخْبار ، فتحرقتُ حينئذٍ وحَوْلَقت ، وأفقتُ ولـكِنْ حِينَ فاتَ الوقتُ ، وأيقنتُ أنَّ لِثامَهُ كان شَرَكَ مكيدَتِهِ ، وبيتَ قَصيدَتِهِ . فنكَّسَ طارفى ما لَقِيت ، وآليت ألّا أعامِلَ ملثَّمًا ما بقيت .

* * *

تمثّلت: تصوّرت . المداعب : الممازح . والمَعرَض بفتح الميم : الموضع الذى تُعرَض فيه الأشياء ، والمَعْرِض الثوب تُعْرَض فيه الجارية. تصلّبَ : تقوّى،وهو « تَفَعّل » من الصَّلابة وهى الشدة. والأرض الصُّلبة :القوية . ولا أعلم أحداً خالف فى هذه الرواية إلا ابنُ ظَفَر فإنه رواه : « تصلّت » بالتاء بنقطتين ، وفسره بتجرّد وجدّ ، وكل جادّ مجاهد مسرع فى أمره: فهو مُتَصلّت فيه ، فذكروا أنه تصحف عليه اللفظ ، فشرحه على تصحيفه . المحقّ :صاحب الحق. الرّق: العبودية : وذكر الطينة لأنها أصل الخلق. وتبرّأ منها، تباعد . جُلْنا : تصرّفنا . ملاكمة : مدافعة ومُضاربة ، واللـكم : الضرب بجُمْع الـكفّ . أفضت : اتّصلت . أوضحنا : بيّنّا . الصُّورة : القصة . تَلَوْنا : قرأنا.وذكرناها له . أنذر :أعلم . أعذر : أتى بعُذْر ، ويقال: قد أعذرمن أنذر ، أى قد بلَغ أقصى العذر مَنْ أنذرك ، وعُذِّر الرجل فهو معذَّر، إذا اعتذر ولم يأت بعذر . ومنه قوله تعالى:﴿ وَجَاءَ المعذّرون من الأعراب ﴾ . ارعويت : رجعت عن جهلك وانـكففت . بلَهك ، غَفْلتك وجهلك . حَذَارِ ، أى احذر أنْ تتعلّق به . استرقاقه : تملّـكه وتعبّده ، ومنه

قولهم : سوق الرقيق ، ومنه سُمِّيَ العبد رقيقاً ، لأنهم يرقّون لما لكهم ويخضعون له ويذلّون : والأديم : الجلد . للتقويم : لمعرفة قيمته . أفول : غروب . أنشاه : أحدثه وولّده . جُبَار : باطل . إخبار : إعلام . وأخبار : جمع خبَر ، وأخبره : أعلمه . تحرّقت : عضضت أسنانى حتى صوّتت من شدة الغيظ . حَوْلقت : قلتُ : لاحول ولاقوة إلا بالله . أفقت : انتبهت ، وأنشد الفنجديهى فى معنى هذا :

يفتضِحُ الجاهلُ لكنَّهُ من بعد ماغرّبه الناصحُ
ويصلح ابنُ السوء لكِنَّه من بعد مامات الأبُ الصالحُ

قوله : وأيقنت أن لئامه كان شَرَك مكيدته ، أى شبكة حيلته . وبيت القصيدة : أحسن بيت فيها ، فأراد أن حيلته كانت لئامه ، نكّس طرف : أى كسر عينى ، وأمال نظرى .

* * *

ولَمْ أزَلْ أتأوّه لُحسْرِ صَفْقَتِى ، وافتضاحِى بين رُفْقَتِى . فقال لى القاضى ، حينَ رأى امتِعاضِى ، وتبيَّنَ حَرَّ ارْتِماضِى : ياهَذا ، ما ذَهَب من مالِكَ ما وَعَظَك ، ولا أجْرَمَ إلَيْكَ مَنْ أيقظَك . فاتّعِظْ بما نابَك ، وكاتِمْ أصْحابَكَ ما أصابَك ؛ وتذكّرْ أبدًا مادَهَمَك . لتقِىَ الذِّكْرَى دَرَاهِمَك ، وتخلّقْ بتخلُّق مَنِ ابتُلِىَ فصَبرَ ، وتجلّت له العِبر فاعتبرَ .

قال الحارث بن همّام : فودّعتُه لابساً ثوبَ الخجل والحزَن ، ساحباً ذيلَ الغَبْن والغَبن ، ونويتُ مكاشفة أبى زيد بالهَجْر ، ومصارمتَه يَدَ الدهر . فجعلتُ أتنكّبُ عَنْ ذَرَاه ، وأتجنّب أنْ

أَرَاهُ ؛ إلى أنْ غَشِيَنِي فى طريقٍ ضيّق ، فحيّانى تحيَّة شَيِّق ، فما زِدتُ على أن عَبَسْتَ وما نبستُ ، فقال لى : ما بالُك شَمَخْتَ بأنفك على إلْفك ! فقلت : أَنسيتَ أنَّك احْتَلْتَ وَخَتَلت ، وفَعَلتَ فَعْلتَك الّتى فَعَلْت ! فأَضْرط بى مُتَهازِيا ، ثم أنشد متلافيا :

* * *

أتأوّه : أتوجّع . رفقتى : أصحابى . امتعاضى : توجّعى . ارتماضى : حرقة قلبى من شدّة الهمّ ، ولايكون المتعِض كاظماً ، فلابدّ من ظهور الكرْب عليه ، وأمْرٌ ممعِض وماعضٌ ، أى ممضّ كارب .

قوله : ماذهب من مالك ماوعظك ، هو مثل ، ومعناه إذا ذهب من مالك شىء حذرَك أن يحلّ بك مثله ، فتأديبه إياك عِوَض من ذهابه . أجرم : أذنب . نابك : نزل بك . دهمك : غَشِيَك . تجلّت : ظهرت . العبَر : العلامات المخوّفة ، واعتبرت بالشىء إذا اتّعظت به . الخجل : الحياء . ساحبا : جارًّا . الغبْن : بسكون الباء فى البيع ، وبفتحها فى الرأى ، يريد أنه غبن فى رأيه وبيعه ، قال فى الدّرة : الغبْن بإسكان الباء فى المال ، وبفتحها فى الرأى والعقل . نويت : أضمرت . مصارمته : مقاطعته ، وصرمتُ فلانًا : قطعت ما بينى وبينه من المودّة . والصّرْم : القطع ، وقيل للّيل : صريم ، لانقطاعه عن النهار ، وهو فى تأويل مَصْرُوم أى مقطوع ، وكذلك الصّريم من الرمل ، وهو الذى انقطع من معظَمه .

يد الدهر : أى أبدَ الدهر .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايحلّ للمسلم أن يهجُرَ أخاه فوق ثلاثة أيام والسابق السابق إلى الجنة » .

ذَراه :جهته . غَشِيَنى : قصدنى وأتانى على غفلة . شيّق : شديد الحبّ، مانبستُ : ماتكلّمت . شمخت : رفعت أنفك كبراً ، وشمخ : تكبّر . ختلت : خدعت ، وخاتل فى معنى خَتَل ، وأصل المخاتلة المشى للصيد قليلا قليلا خفية لئلاّ يُسمع حسّك ، ثم جُعلت مثلا لكل شىء وُرِّى به وسَتَر على صاحبه . متلافيا : متداركا للألفة .

• • •

يامَنْ نَدَا مِنْهُ صُدُو دٌ مُوحِشٌ وَتجهُّمُ
وغَدا يريشُ مَلاَوِمًا مِنْ دونهنّ الأسْهُمْ
وَيقول : هل حُرٌّ يُبا عُ كما يُباعُ الأدهمُ
أقْصِرْ فما أنا فيهِ بِدْ عًا مثل ما تَتَوهَّمُ
قدْ باعت الأسباطُ قبْلِي يوسفًا وهمُ هُمُ
هذا وَأقسِمُ بالّتِي يَسْرِى إلَيها المُتْهِمُ
وَالطّائفين بِها وهُمْ شُعْث النَّواصِى سُهَّمُ
ما قمتُ ذاكَ الموقفَ الـ مُخزِى وَعِنْدِى دِرْهَمُ
فاعذرْ أخاكَ وكُفَّ عَنْهُ مَلاَمَ مَنْ لايَفْهَمُ

• • •

تجهّم : عُبوس . مَلاَوما : جمع مَلام أو ملاومة ، وهى اللوم والعتاب ، يريد أنّ لومه أنفذ من السّهام . الأدهم ، قيل :أراد به الفرس وقصد لونَه للقافية ، وقيل:أراد العبد الأسود . بدْعًا ، أى أوّلا أى ماأنا أوّل من فعل ذلك . الأسباط :

إخوة يوسف عليه السلام . وهم هم : أى وهم أنبياء لم يتغيّروا عن مراتبهم ، ويقال : هو هو ، أى هو كما عهدتَه لم يتغيّر .

[قصة يوسف عليه السلام]

وقد جرى ذكرُ يعقوب والأسباط فى المقامات فى مواضع، وبقى هذه المقامة على ذكر يوسف وجماله وبيع إخوته إياه . ونريد أن نلمّ بطرَف من أخبارهم على شرط الكتاب .

ذكر أهلُ الأخبار أنّ يعقوب ـ وهو إسرائيل عليه السلام ـ تزوّج بنت خاله ليا بنت ليّان بن بتويل، فولدتْ له رُوبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وغيرهم ، ثُم تُوفِّيَتْ وخلَفَ على أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين . وكان يوسفُ وأمه قد قُسِم لهما من الحسن شطْرُه ، فكفلتْ يوسفَ عمّتُه . وكانت أكبرَ ولد إسحاق ، وكانت عندها مِنطقة لإسحاق يتوارثونها على قدر أسنانهم. فلمّا ترعرع يوسف أراد يعقوب أخذَه منها ، وقال لها : والله لا أقدر على الصّبر عنه، فقالت له: والله لا أقدر على صَرْفِه إليك . فلما رأت عزمه على أخذه ، حزمت المنطقة تحت ثياب يوسف وهو نائم ، ثم ادّعت فقدَها فطُلِب فوجدت عنده ، وكان من سنّتهم أن مَنْ سرق شيئاً أخذ فيه ، فتركه لها حتى ماتت . فلمّا رجع إلى أبيه شُغِل به عن سائر بنيه ، فحسَدُوه ، فسألوا أباهم إرساله معهم للنزهة ، بعد أن ضَمِنوا حفظَه ، فأخرجوه إلى البريّة ، وأخذوا يضربونه ، وكُلّما ضربه واحدٌ استغاث بآخر ، فيضربه الآخر . فلما كادوا يقتلونه منعهم يهوذا ، وذكّرهم بما ضمنوا لأبيه من حفظه ، فانطلقوا فأدلَوْه فى الجبّ ، وهو يقول : يا أباه لو تعلم مايصنع بابنك بنو الآباء ! وكان بعض إخوته لأمّه ، فجعل يتعلّق بشفير الجبّ ، فربطوا يديه ، وألقَوْه فيه ، فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً ينجُّوك . ثم أرادوا أن يَرْضخوه بصخرة ، فمنعهم يهوذا ، وكان يأتيه بالطعام خِفْيةً منهم .

ثم مرّت سيارة فأدلى واردُهم دلوَه فتعلّق به ، فلما رآه بشّر به السيارة . وقال السُّدىّ: إنّ الذى أخرجه إنما دعا صاحباً له اسمه بشرى ، فأتى إخوته الذين أخرجوه وقالوا: إنه عبد لنا ، فباعوه منهم بعشرين درهما على أن يُخرجوه من أرض الشأم، فشرطوا لإخوته أن يغرّبوه ، ويذهبوا به إلى مصر ، فحينئذ رجعوا إلى أبيهم عشاء يبكون .

فهذه قصة بيع الأسباط يوسف على اختصار .

ثم إنه لمّا بلغ مصرَ من العزيز ، وكان فرعون ـ وهو الريّان بن الوليد ـ قد ولاّه خزائنها ، فكان من قصّته مع امرأة العزيز ومن حبّها فيه ومن دعائها إياه لنفسها ، ومِنْ تأبّيه من ذلك واستنزالها إياه ؛ حتى همّ بها ، ورؤيته برهان ربّه ـ وهو رؤيته صورةَ يعقوب يعضّ على إصبعه ، وقيل : إنه رأى فى الحائط مكتوبا : « ولا تقربوا الزنا ـ ومبادرته الباب فارًّا منها ، وقدّها قميصَه من دُبر ، ووجوده العزيز على باب الدّار جالساً مع ابن عمّ له، وهو الشاهد من أهلها ـ وقيل: إنه كان صبيًّا فى المهد ـ واشتهار أمرها بمصر ، حتى تحدّثت به نسوة فى المدينة ، وقلن : امرأة العزيز تُرَاود فتاها عن نفسه، وإحضارها لهنّ وإعدادها لهنّ ما يتّكئن عليه ـ وقيل: المتّكأ الأترجّ ـ وأمرها له أن يخرج عليهنّ ، وإعظامهنّ إياه حتى شغلن به عن أنفسهن ، وقطّعن أيديَهُنّ وقلن : حاش لله ما هذا بشراً ، تنزيهاً له عن أن يأتىَ ـ مثله ريبة ، فكان من هذا الخبر ما قص الله فى القرآن ونطقَتْ به التّفاسير والأخبار .

ثم إن امرأة العزيز قالت للعزيز: إن عبدك فَضَحنى فى النّاس فإمّا سجنتَه ، وإمّا برزتُ للناس أعتذر عن نفسى ، فحبسه ، فدخل معه رجلان أحدُهما خبّاز الملك والآخر نديمه . وكانَ لمّا بلغ الحلم آتاه الله حُكْماً وعلماً من العبارة ، فكان

فى السِّجن يفسر الرؤيا للمسجونين ، ويمرّض مرضاهم ، ويُوَسّع على من ضاق عليه مكانه ، فقال أحدالفتَيين لصاحبه : هلمّ نُجرّب هذا العبد . فسألاه من غير أن يَريا شيئاً ، وقالا له : إنا نراك من المحسنين فى معاشرتك أهلَ السجن ، فقال لهما : أمّا أحدُكما فينادم الملك، وأما الآخرُ فيصلَب ، فقالا له : مارأينا شيئا، فقال لهما : قُضِيَ الأمر فيكما . ثم قال للذى ظن أنه ناجٍ منهما : اذكُرْنى عند ربّك ، وأخبِرْه أنى محبوس ظلماً . فأوحى الله تعالى إليه : إن اتخذتَ من دونى وكيلا لأطيلنّ سجنَك ، فعوقب بالسجن حيث همّ بامرأة العزيز ، وبإطالته حيث اتّكل فى أمره على غير ربه .

ثم كان من رؤيا الملك وجَهْل أهلِ دولته وتفسير يوسف لها، وقول الملك : ائتُونى به وتأبّيه الخروج حتى يسأل النِّسوة عن شأنه وشهادتهنّ عند الملك بتبرئته واعتراف امرأة العزيز بأنها راودته ، وقوله فى العزيز : ﴿لِيَعْلَمَ أنّى لم أخُنْه بالغيب﴾ .

ويقال إن جبريل قال له عند ذلك : ولا يوم همتَ بما همَمْتَ به ! فقال : ﴿وما أبرّئ نفسى إنّ النفس لأمّارة بالسُّوء إلاّ مَا رَحِمَ ربى..﴾ الآية . واستخلاص الملك إياه لنفسه ، وجعْله على خزائن أرضه ؛ ما اشتهر قرآناً وتفسيراً .

ويقال إن العزيز مات فى تلك المدة ، وإن يوسف تزوّجها ، وقال لها : أليْسَ هَذَا خيراً ؟ فقالت: لاتلمنى ، كنت امرأة حسناء فى مُلْكٍ ودُنْيا ، وكان صاحبى لايأتى النساء ، وكنتَ كما جعلك الله فى حُسْنك ، فغلبَتْنى نفسى على مارأيت . فيزعمون أنه وجدها عذراء ، وأنها ولدت له ابنين .

ثم أجدبت الأرض، فأتاه إخوته منتجعين، فكان من أمرِه معهم ، وإحسانه إليهم فى الكيل، وطلبه لهم أنْ يأتوه بشقيقه بنيامين، ورجوعهم موقَرين، ورغبته إياهم فى إرساله معهم ، وأخذه بسرقة الصُّواع وتأذّيهم بذلك ، ورجُوعهم إلى

أبيهم وتوالى الحزن على يعقوب بفقد ابنيه ، وأمره لبنيه أن يرجعوا طالبين ليوسف وأخيه ، ودخولهم على يوسف أذلاء صاغرين ، وتعريفه إياهم بمكانه ، وبعثه بالقميص إلى أبيه ، وجمع شملهم بعد طول مدة الفراق مانصّ الله تعالى أنه عبرة لأولى الألباب . ولولا أنّ الأمر فى كتب التفسير أشهر من أن يجهل ، لفسّرناه فصلاً فصلاً .

* * *

قوله : وأقسم بالتي يَسْرِى إليها المُتْهِم - يعنى مكة - والمُتْهم الآتى تِهامة ، وتِهامة اسم مكة ، قال الأصمعىّ : سمعت العرب تقول : إذا انحدرتَ من ذات عِرق فقد أتْهمت . شُعْثٌ سُهُم : أى متغيِّرة ألوانهم وشعورهم .

قوله : اعذر أخاك ، قال زيد بن علىّ : ثلاثة لا يجتمعنَ إلا فى كريم : حُسْن المحضر ، واحتمالُ زلّاتِ الإخوان ، وقلة الملالة للصديق .

* * *

ثمّ قال : أمّا مَعْذِرتى فقدْ لاحتْ ، وأمّا دراهِمُك فقدْ طاحَتْ ؛ فإنْ كان اقْشِعْرارُك مِنّى ، وازْوِرارُك عَنّى ، لفَرْطِ شَفَقتِكَ عَلَى غُبَّرِ نَفَقَتِك ، فلستُ مِمَّنْ يَلْسَعُ مَرَّتَيْن ، وَيُوطِئُ عَلَى جَمْرَتَيْن . وإن كنتَ طويتَ كَشْحَكَ ، وأطَعْتَ شُحَّكَ ، لِتَسْتَنْقِذَ ما عَلِق بأشْراكِى ، فَلْتَبْكِ عَلَى عَقْلِكَ البَوَاكى .

قال الحارث بن همّام : فاضطرّنى بلفظِه الخالب ، وسِحْره الغالب ، إلى أن عُدْت له صَفِيًّا ، وبه حَفِيًّا ، ونبذْتُ فعلتَهُ ظِهْرِيًّا ، وإن كانتْ شَيْئًا فَرِيًّا

لاحت : ظهرت . طاحت : هلكت اقشعرارُك : انقباضك . والقُشعريرة : رِعْدة وانقباض . ازورارك : انقباضك وَميلك . لفرط شفقتك ، لكثرة خوفك . غبّر نفقتك : أيَ تخاف على مَا بَقِي من نفقتك وإن أخذها . بُوطِيء ، أي يجعل غيرَه يطأ الجمر ، أى لاأضُرّ مرتين . والكَشح : الخَصْر ، وقيل : الجنْب ، وقيل : هواسم لما بَيْن الأضلاع ، ورأس الوَرِك ، وكلُّها متقاربة ، وطوى كشحه على أمر ، استمرّ عليه ، وطوى كشْحَه ، مثل يضرب للمجانبة والمكاتمة ، قال الشاعر :

طَوَى كشحاً خليلُك والجناحا لبينٍ منك ثُمَّ غـدَا وراحَا[1]

والشحّ : البخل مع الحِرْص ، واضطرنى : ألجأنى ، الخالب : الخادع . صفيًّا : صاحباً مخلصا ، حفيًّا : معينا . كريماً : مكرِماً ، نبذت : رميت . وطرحت ظِهْرِيًّا ، أى خلف ظهرى ، واتخذه ظهريا ، أى عُدة يستظهر بها ، أى يجعلها خَلْف ظهره حتى متى احتاجها استعملها فَرِيًّا : عجباً ومنكرًا ، والفرىّ : الأمر العظيم ، والفرىّ الكذب .

ومما جاء فى الشعر على أخبار يوسف عليه السلام

قال ابن الزقاق :

بأبى وغير أبى أغنُّ مُهَفْهَفٌ مهضوم ماخَلْف الوِشاحِ خَمِيصُهُ[2]

لِيس الفؤادَ فزَقْتَهُ جفونُه فأتى كيوسف حين قُدّ قميصُهُ

وقال أيضاً :

وسـافرٍ عن قمرٍ مبتسمٍ عن دُرَرِ[3]

(١) اللسان (كدح)
(٢) ديوانه ١٩٦ ، والخميص : الضامر البطن .
(٣) ملحق ديوانه ٢٩٣

لولاح للحور وقد سلّ حُسامَ الحَوَرِ
لقُدّ منه شغَفاً قَميصُه مِنْ دُبُرِ

ومن المُلح فى ذلك قول ابن حجاج فى بختيار :

فديت وجه الأمير من قَمَرِ يجلو القَذى نُورُه عن البَصَرِ[1]
إنّ زليخا لو أبصرتْكَ لما ملّت إلى الحشر لذة النّظر
بل وحياتى لو كنتَ يوسفَها لم تكُ من تهمة العزيز بَرِى
فإننى عالمٌ بأنّك لو شمّمتَ ريّا نسيمها العَطِرِ
سبقتَها واندلَقْتَ تقبُها من بين تلك البيوت والحجر
ولم تزل بالكدّين تنقرُها[2] من قبل وقت العشا إلى السّحَرِ
طبعك كالماء فى سُهولتِه لكن أبو الزّبْرِقان من حَجَرِ
إنّ الملوك الشّباب ما خُلِقُوا إلاّ صلابَ الفِياش والكَمَرِ

وقال آخر :

قميص يوسف لمّا قُدّ من دُبُرِ كانت براءته فيه من الكذب
وفى قميصك لمّا قد من دُبُرِ تما يدلُّ على الفحشاء والرِّيَبِ

وقال آخر فى الحسن بن وهب :

إذا لقيتَ بنى وهب بمنزلةٍ لم تدر أيّهما الأنثى من الذّكَرِ
مؤدّبون على الفحشاء من صِغَرٍ مدرّبون على النّكراء من كِبَرِ
قميص أنثاهُمُ ينشقُّ من قُبلٍ وقمص ذُكرانهم تنقدّ من دُبُرِ
محنّكونَ ولم تقطع سرائرُهمْ بين الحواضِنِ والدّايات بالكَمَرِ

(١) اليتيمة ٣ : ٤٠ (٢) اليتيمة : « تقصرها » .

المقامة الثالثة والثلاثون وتعرف بالتفليسية

حكى الحارث بن همّام قال : مَرَرْتُ فى تَطْوافى بِشِيراز ، على نادٍ يَسْتَوْقِفُ المُجْتَاز ، ولو كان على أَوْفاز ؛ فلم أَسْتَطِعْ تَعَدِّيه ، ولا خَطَتْ قَدَمِى فى تَخَطِّيه ؛ فعُجْتُ إليه لأَسْبُكَ سِرَّ جَوْهره ؛ وأَنْظُرَ كَيْفَ ثَمَرُهُ من زَهَرِه ، فإذا أهلُه أفراد ، والعائجُ إليهم مُفَاد . وبينما نحنُ فى فكاهةٍ أطربَ من الأغارِيد ، وأطيبَ من حَلَبِ العَناقيد ؛ إذ اخْتَفَّ بنا ذو طِمْرَيْن ، قد كاد يُنَاهِزُ العُمْرَيْن ، فحيَّا بِلِسَانٍ طليق ، وأبان إبَانَةَ مِنْطِيق ، ثم احتبَى حُبْوَةَ المُنْتَدِين ، وقال : اللّهمَّ اجْعَلْنا من المهتدين . فازْدَرَاهُ القومُ لِطِمْرَيْهِ ، وَنَسُوا أنّ المرء بأصْغَرَيْه

• • •

القطواف : مصدر طوّفت حول الشىء ، إذا أكثرتَ المشىَ حولَه ، وقد طفتُ به وأطفتُ ، وإذا درت وأكثرت ذلك قلت : طوّفت .

وشيراز : مدينة فارس العظمى ، وهى مدينة جليلة عظيمة ، ينزلها الولاة ، ولها سعة حتى إنه ليس فيها منزل ، إلاّ وفيه لصاحبه بُستان فيه جميع الثّمار والرياحين والبُقول ، وكلّ ما يكون فى البساتين . وشُرْب أهلها من عيون تجرى فى أنهارٍ تأتى من جبالٍ يسقط عليها الثلج .

قوله : ناد : مجلس . يَستوقِف : يحبس ويجعله يَقِف . المجتاز : خاطر الطريق المارّ عليه .

أوفاز : انحفاز وعجلة ، ومنه قولهم : قعد مستوفزًا ، معناه قعد على وَفْزٍ من الأرض ، والأوفاز : جمع وَفْز وهو ألاّ يطمئن فى قعوده . قال الجوهرى رحمه الله تعالى : تقول نحن على أوْفاز ، ولاتقول على وفَز ، ومعناه ألاّ تلقاه مُعَدًّا .

الأزهرىّ : الوفْزة : الوثبة بعَجلة ، وقَعَد مستوفزًا ، إذا رفع أليَتَيْه ووضع رُكبتيه ولم يطمئن .

تعدّيه : تخطّيه وجوازه . وخَطَتْ : مشت . عُجْتُ : مِلْت . أسبُكُ . أجرّب سرّ جوهره : أراد باطن أهله إذ كانوا فى الظاهر ذوى مناظر ، فأراد أن يعرف : هل هم أهل علوم وآداب ، حتى يكملوا فى الظاهر والباطن ، أم أمرهم على خلاف ذلك . وبيّن ذلك بقوله : كيف ثمره من زهره ، فكنى بالزّهر عن ظاهرهم ، وبالثّمر عن سرّهم الباطن ، وسرّ كل شىء : باطنه وخالصه ، وقال المعرّى :

فلا يغرّنْك بِشرٌ من سواه بدا ولو أنار ، فكم نَوْرٌ بلا ثَمَرِ[1]

قوله : أفراد ، أى كبراء لانظير لهم ، فمن مال إليهم استفاد ، وأفراد : نجوم الدّرارى . والعائج : المائل . فكاهة : حديث مطرب . الأغاريد : أصوات الطير ، ويُطلقون على ما كان فيه حنان ورقة منها اسم التّغريد والغناء ، إلا الحمام فإنهم يسمّون أصواتها غناء وتغريدا وبكاء ونياحًا ، ويأخذونه من حال السامع لها . وقرئ على أبى الحسن بن السراج قولُ سُوَيد بن الأعلم :

لقد تركتْ فؤادَك مستجنًّا مطوّقةٌ عـــلى فَنَنٍ تَغَنّى
يَميـــل بهـا وتركبه بلحـنٍ إذا ما عنّ للمحـــزون أنّا

(١) سقط الزند ١٣٩ ، وفى ط : « سر » موضع : « بشر » .

فقال : إنما تكون أصوات الحمام على ما فى نفس المستمع ، فإذا سمعها مَنْ يطرب سمّاها غناء ، وإذا سمعها مَنْ يحزن سماها بكاء .

وقال ابن قاضى ميلة مصدّقا لما قاله ابنُ السرّاج :

لقد عَرَض الحمام لنا بسجْعٍ إذا أصغى له ركبٌ تلاحَى
شجا قلب الخلىّ فقال غنّى وبرّح بالشّجىّ فقال ناحا[1]

وسبقه المعرّى بقوله :

بأرضٍ للحَمامة أنْ تغنّى بها ولمن تأسّف أن تَنوحَا[2]

وقد قدّمنا فى شرح الصدر فصلاً للحمام . وما أحسَن قول البحترىّ :

حَيّتْكِ عَنّا شَمال طافَ طائفُها فى جنة نفحَتْ روْحًا وريحانا
غنّت سُحَيراً فناجى الغصنُ صاحبَه سِرًّا بها ، وَتَداعى الطير إعلانا
ورُقٌ تغنّى على غصْنٍ مهدّلةٍ تسمُو بها وتمسّ الأرض أحْيَانا
تخال طائرها نشوانَ من طرَبٍ والغصن من هِزّةِ عِطْفَيْهِ نَشْوانا

وهذه ديباجة أبى عبادة . وحلَب العناقيد : الخمر . احتفّ : انتظم . طِمْرين ، أى ثوبين خَلَقين . يناهز : يقارب . المُمْرين : ثمانين سنة ، وذلك أن الإنسان من الشبيبة إلى الأربعين فى نماء وزيادة وقوّة ، ومن الأربعين إلى الثمانين فى نقص ، فالبالغ الثمانين قد استوفَى عُمْرَىِ الزيادة والنقص . وسئل ذو الرُّمة عن سنّه ، فقال : بلغتُ نصف عمر الهَرِم أربعين سنة ، وقيل : العمر ستون سنة ، لقوله عليه الصلاه والسلام : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين » .

(١) نثار الأزهار ٢٩ ، ونسبه للمنازى . (٢) سقط الزند ٥٤٥ .
(٣) من زيادات ديوانه .

ومن حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : «مَنْ أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله إليه» ، فالعمران على هذا مائة وعشرون سنة . والحكماء يزعمون أنه منتهى ما يبلغ عُمر ابن آدم ، والأظهر من سياق المقامة أنه أراد الأول ، لأن مَنْ قارب مائة وعشرين سنة لا يلتذ بخمر ولا بغيره وهو يزعم فى المقامة أنه يحاول شربها لغناء وغير ذلك .

قوله : أبانَ : بيّن . مِنْطيق : فصيح . احتبَى حبوَهم ، أى جلس مثل جلوسهم المنتدين : أهل المجلس . ازدراه : احتقره .

أصغريه : قلبه ولسانه ، وقيل لهما الأصغران لصغر حجمهما مِنْ بين الأعضاء لفضلهما وشرفهما على الأعضاء ، قال علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : ولكنى مدرّب الأصغرين ، ولجلبهما القيام والكمال ، كأنه قال : المرء يقوّم أموره بلسانه وقلبه ، ويكمل المرء بهما ، قال الأصمعىّ رحمه الله تعالى : كان ضمرة بن أبى ضمرة قصيرًا ، وكان يقول : للمرء بأصغريه ، بقلبه ولسانه .

* * *

وأخذوا يتداعَوْنَ فَصْلَ الخطاب ، ويَعتدُّون عُودَهُ من الأحطاب ، وهو لا يُفيضُ بكلِمَةٍ ، ولا يُبينُ عن سِمَة ، إلى أن سَبَر قرائحَهُمْ ، وخَبَر شائلَهُمْ وراجحَهُمْ . فحين استخرَج دَفائنَهُمْ ، واستنثَلَ كَنائنَهُمْ ، قال : ياقومِ لو عَلِمْتُم أنّ وراء الفِدام ، صَفْوَ المُدام ، لَمَا احتقرتُمْ ذا أخلاق ، وقُلْتُم ما لَهُ مِنْ خَلاق . ثم فَجّر مِنْ يَنابيعِ الأدب ، والنّكتِ النُّخَب ، ما جلَب بِهِ بدائعَ العَجَب ،

واستوْجَبَ أن يُكتَبَ بذَوْبِ الذَّهَب . فلمَّا سَخلَب كُلَّ خِلْبٍ ، وقَلَب إليه كُلَّ قَلْب ، تحلْحَل ، ليرْحَلَ ، وتأهّب ، ليذهَب ، فعَلِقَتِ الجماعَةُ بذيْلِهِ ، وعاقتْ مَسْرَب سَيْلِهِ ، وقالت له : قَدْ أَرِيْتَنا وَسْمَ قِدْحِك ، فخبِّرنا عَنْ قَيْضِكَ وَمُحِّك . فصَمتَ صُموت من أفْحِم ، ثم أَعْوَلَ حَتَّى رُحِم .

قال الرّاوى : فلمَّا رأيتُ شَوْبَ أَبى زيدٍ وَرَوْبَهُ ، وأسلُوبه المألوفَ وصَوْبَه ، تأمّلتُ الشيخ على سُهُومَةِ مُحيَّاه ، وسُهُوكةِ رَيّاه ، فإذَا هُو إيّاه .

* * *

يتداعَوْن : يدعو بعضُهم بعضا إلى ذكر الفصاحة ، والأشبَه أن يكون من الأدعيّة ؛ وهى الأحجيّة والأغلوطة ، كأنهم يتحاجَوْن . وفصل الخطاب ، كناية عن الفصاحة . يعتدّون : يحسبون ، الأحطاب : جمع حَطَب ، ولا يقال للعود حطب حتى يجفّ ماؤه ويبيس ، فأراد أنهم حسبوا أبا زيد من جنس الحطب لا نضارة فيه ، كأنه لا علْم عنده . وقال الشاعر :

إذا العود لم يثمرْ وإن كان شعبةً ... من المثمرات اعتدَّه الناسُ للحطبِ

يُفيض : يتكلم ويندفع فى القول ، وفاضَ لسانه وأفاض ، أى أبان . يبين : يبيّن . سِمَة : علامة . سَبَر : قاس وجرّب . قرائحهم : أذهانهم . خَبَر : جرّب . شائلهم : ناقصهم . راجحهم : وافيهم ، والشائل من الدراهم : الناقص الذى يشول به الميزان ، أى يرتفع ، والراجح ضده . وقال فى الدّرة : الشائل : المرتفع ، وأنشد :

ياقومِ مَنْ يعذر فى عجردٍ القاتل المرء على الدّانِق[1]
لمّا رأى ميزانه شائلاً وجاه بين الأذن والعاتق

استنثل كنائنهم : استخرج ماعندهم ، والكنانةُ : جعبة السهام . الفِدام : خرقة تُجعل على فم الإبريق ليصفوَ الخمر بها . أخلاق : ثياب بالية . خَلاَق : نصيب وافر من الخير . ينابيع : مخارج الماء من العيون . النّكت : المعانى الغامضة ، والنكتة : نقطة فى شىء تخالف لونه ، فإذا كانت فى الكلام فهى عيونه . النُّخَب : المختارة . بدائع : غرائب . ذوب الذهب : ما ذاب منه ، ولو أنشدهم شعراً يوافق مجلسهم لم يكن إلا أبيات الناشى :

كأنهمْ فى صدورِ النـاس أفئدةٌ تُحِسّ ما أخطروا فيها وماعتمدُوا
يُبْدُون للنّاس ماتخفِى ضمائرُهمْ كأنهم وجدوا منها الّذى وَجَدُوا
دلّوا على باطن الدنيا بظاهرِها وعلْم ما غاب عنهمْ بالّذى شهِدُوا
مطالع الحق ما مِنْ شبهة غسقتْ إلا ومنهمْ لديْها كوكبٌ يَقِدُ

أو أبيات ابن شهيد حيث قال :

وفتيةٍ كالنّجوم حسنًا كأنّهمْ شاعرٌ نبيلُ[2]
متّقِد الجانبين ماضٍ كأنّه الصارم الصقيلُ
رامُوا انصرامِى[3] عن المعالِى والقرب من دونها كليلُ
فاشتدّ فى إثرها مِسَحٌّ كلّ كثير به قليلُ

---

(١) درة الغواص ٨٥ ، ٧٦ .
(٢) ديوانه ١٣٩ .
(٣) الديوان « انصرالى » .

فى مجلس شانه القصافى تطيش فى وصفه العقول[1]

قوله : خلَب، أى خدع . والخِلْب: الحجاب الذى بين سَواد القلب وسواد البطن . تَحَلْحَل : تحرّك ، وأصله للبعير إذا حرّكته للقيام تقول له : حل حل . عاقتْ : منعتْ وحَبَسْت. مَسْرب : طريق مَسِيل الماء ، وسرب يسرُب سروباً: مضى على وجهه فى سفر بعيد ، وسرب الماء يَسْرُب سَرَبا ومسرباً فهو سَرِب : سال ، والمعنى منعته المشى . وَسْم قِدْحِك : عَلامة سهمك ، والقِدْح السهم قبل أن يُراش ويركّب نصله . وأرْويتَنا من نضحك ، أى أسقيتنا من بَلَلِك ، والنضح : الرشّ الخفيف : قَيْضك وخُمّك ، أى ظاهرك وباطنك ، لأنّ القَيْض قشرة البيضة العليا وقلبها الأصفر هو المحّ ، بحاء غير منقوطة .

الفنجديهى : عن قَيْضِك وخُمِّك أى عن نسبك وبلدك . صمْتُ : سكت . أفحم : غلبَ وقطع عن الكلام . أعول : بكى . وشَوْب أبى زيد وَرْوبه ، أى تخليطه فى حِيَله ، والشوْب: الخلط ، تقول: شُبْت الماء باللبن ، أى خلطتهما والرَّوْب:اتخاذ الرائب ، والشَّوْب: اللبن الممزوج بالماء هنا ،والرَّوْب : الخالص . ويقال : ما عنده شوْب ولا روْب ، أى لا مرقَ ولا لبن ، وقيل : الشوْب العسل ، والرَّوْب اللبن : وفلان يَشُوب ويرُوب ، أى يخلط ويصفّى ، وأصله يَرِيب، قلبت «يروب» طلبا للازدواج ، يضرب مثلا لمن يخلط فى القول والعمل والشَّوْب والرَّوْب جميعا : الخلط ، وراب الرجل روْبا : اختلط عقله ورأيه . أسلوبه: طريقه . المألوف الملتزَم. صَوْبه:قصده وجانبه وصوابه . سهومة محيّاه: تغيّر وجهه . سُهُوكة ريّاه : نتن رائحته من النحر وغيره . وقوله: فإذا هُو إياه :

---

(١) البيت فى الديوان :

فِى مَجْلِس شابه التصابى وطَارَدَتْ وَصْفَهُ العقول

استعمل إيّاه ، وهو ضمير منصوب فى موضع الرفع ، وهو غير جائز عند سيبويه ، وجوّزه الكسائىّ فى مسألة مشهورة جرت بينهما :

[ذكر مسألة نحوية]

قال الفنجديهىّ : سألت شيخنا العلاّمة إمام النحاة جمال العلماء ، أبا محمّد عبد الوهاب بن برّى بن عبد الجبّار المقدسى عن شرحها ، فقال أيده الله : سألتَ شرح الله صَدْرَك ، وأعلى فى منازل الشرف قَدْرك ، عن المسألة التى جرت بين سيبويه والكسائىّ ، وهى قوله : « كنت أظنّ أن العقربَ أشدُّ لسعةً من الزنبور فإذا هو إياها » ، وسألتَ عن وجْهِ النصب فى « إياها » عند من أجاز ذلك . فاعلم أن مذهب النحويين البصريين فى مثل هذه المسألة أن يكون ما بعد إذا مرفوعاً بالابتداء والخبر ، فيقال : فإذا هو هى ، على حدّ ما فى الكتاب العزيز : ﴿ فإذا هى بَيْضاء للناظرين ﴾[1] وقوله : ﴿ فإذا هِىَ ثُعبانٌ مبين ﴾[2] ، فإذا هنا ظرف مكان وليست كالزمانيّة ، وسأفرّق بينهما . وتقديرها فى نحو : خرجت فإذا زيد قائم : خرجت فبالحضرة زيد قائم ، والعامل فى إذا « قائم » ، وإن شئت نصبتَ قائما على الحال ، وجعلت الخبر فى إذا ، كما تقول : خرجت فإذا زيدٌ القائم فالقائم بالرفع على الخبر والنصب على الحال ، ومذهب الكوفيين فى الحال أن تكون نكرةً ومعرفة ، ومن هنا منع سيبويه من إيّاها فى المسألة ، لأن المضمر لا يقع حالاً لتعريفه وعدم الاشتقاق فيه ، والحال تكون نكرة مشتقّة ، والكوفيون يجيزُون النصب على معنى : خرجت فإذا زيد قائما . والأقرب عندى أن يريدوا فإذا هو موجود إياها ، فحذف الخبر وهو موجود لدلالة الكلام عليه ، ومثل هذا عندهم : لئن ضربته ليضربنّه السيّد الشريف ، فينصبون السيّد بإضمار ، فإذا حملته على هذا تخرّج .

---

(١) سورة الأعراف ١٠٨ . (٢) سورة الشعراء ٣٢ ، الأعراف ١٠٧ .

وحكى عن أبى زيد أنه سمع هذه المسألة من العرب ، بنصب « إياها » ، فإن صحّ أنه سمعها فهذا وجه، ويجوز فى قياس قولهم: أن يكون على إسقاط الكاف ، وهم يروُون فى الخبر :« ذَكاة الجنين ذَكاةَ أمه[1] »، بنصب « ذكاة » يقدّرون كذكاة أمّه ، فتقديرها فإذا هو كَهَا ، أى فإذا الزنبور كالعقرب ، وهم يجيزون إدخال الكاف على الضمير ، وسيبويه يمنعه إلاّ فى الشعر كقول العجّاج :

* وأم أوعالٍ كها أو أقربا *

وقال رؤبة :

فلا أرى بعلاً ولا حلائلا[2] كَهُو ولا كَهُنّ إلا حاظلا

وأجاز بعضُ النحويين أن يكون « إياها » كناية عن الجملة ،التقدير: فإذا هو لسعتُه كلسعتها، فكنى عن الجملة بقوله : « إياها » وينصب على الحال، لأنها كناية عن الجملة ، وهي نكرة فتصير فى حُكْمِ النكرة ، كما صارت الهاء فى : ربّه رجلاً نكرة فى المعنى ، لكونها كناية عن نكرة ، ولذا دخلت « رُبّ » عليها، وهى لا تدخل إلاّ على نكرة ، فهذا مايقتضيه وجه النصب فى « إياها » على ما ذكره الكوفيون ، والفرقُ بين إذا الزمانية والمكانية من أوْجُهٍ :

أحدها أنّ الزمانية تقتضى الجملة الفعلية لما فيها من معنى الشّرْط ، والمكانية تقع بعدها الجملة الابتدائية أو المبتدأ وحده .

والثانى:أنّ الزمانية تقتضى جوابا والمكانية لا تقتضيه .

والثالث : أنّ الزمانية مضافة إلى الجملة التى بعدها ، والمكانية ليست مضافة إلى ما بعدها ، بدليل خرجت فإذا زيد ، فزيد مبتدأ وإذا خبره .

---

(١) الخبر فى النهاية لابن الأثير ٢ : ١٦٤ . قال : والتذكية الذبح والنحر » . .
(٢) ديوانه ١٢٨ .

والرابع : أنّ الزمانية تكون فى صدر الكلام ، نحو إذا جاء زيد فأكرمه ، والمكانية لا يُبتدأ بها إلا أن تكون جوابا للشرط ، كالفاء فى قوله : ﴿ وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئة بما قدمت أيديهم إذا هُمْ يقنطون ﴾ .

والخامس : أنّ الزمانية تقتضى الاستقبال والمكانية تقتضى معنى الحضور ، لأنها للفاجأة ، والمفاجأة للحاضر دون المستقبل .

انقضى الكلام عليهما على جهة الاختصار .

• • •

فكتمتُ سِرَّه كما يُكتَمُ الدَّاء الدخيل ، وسترتُ مكرَه وإن لم يكن يُخيل ؛ حتّى إذا نَزَعَ عن إعْوالِه ، وقد عَرف عُثورى على حالِه ، رمَقنِي بعينٍ مِضْحاكٍ ، ثمّ طفِق يُنْشِدُ بِلِسَانٍ مُتَبَاكٍ .

أستغفرُ اللهَ وأعْنُو لَهُ ... من فَرَطاتٍ أثقَلَتْ ظَهْرِيَهْ
يا قـــومِ كم من عاتقٍ عانسٍ ... مَمْـــدوحةِ الأوصاف فى الأنديَهْ
قتلتُهـــا لا أتَّقِي وارِثًا ... يطلُبُ منِّى قَوَدًا أوْدِيَهْ
وكلّ ما استُذنِبْتُ فى قَتْلِها ... أحَلْتُ بالذَّنْبِ على الأقضِيَهْ
ولم تَزَلْ نَفْسِيَ فى غيِّها ... وقَتْلِها الأبْكَارَ مُسْتشرِيَهْ

قوله : الدّاء الدخيل ، هو الذى لا يُتكلَّم به استقباحًا له أو لمحلّه . يُخيل : يشتبه ويشكل ، وخال يَخيل : اشتبه . نزع : كفّ ، إعْوَالِه : بكائه . عُثورى : اطلاعي . رمقني : نظر إلىّ . بعين مِضْحاك ، أي كثير الضحك . مُتَبَاكٍ :

مستعمل للبكاء بتكلّف . أعنو : أذلّ . فرطات : سقطات وزلّات . عاتق : شابّة قد أدركت ولم يَبْنِ بها زوجها ، بل هى بِكْر ، ويريد بها الخمر التى لم يفضّ أحدٌ ختامها . وعانس : طالت إقامتها فى بيت أبيها . الأندية : المجالس . القَوَد : قتل النفس بالنفس . استُذنِبتْ : نُسبت إلى الذنب : الأقضية : جمع قضاء ، أى كلما قيل لى : فعلت هذا الذنب ؟ قلت : إنما هو قضاء الله وقَدَره ، وأخذ هذا المعنى من قول الحُسَين بن الضحاك :

واترُكى العَذْل على مَنْ قالَهُ وانسبى جَوْرى إلى حكم القَضا[1]

ولهذا البيت حكاية أدبية ، قال الحسينُ : كانت لى نَوْبة فى دار الواثق ، فبينا أنا نائم ذات ليلة ، إذْ جاءنى خادم من خدّام الحَرَم ، فقال لى : إن أمير المؤمنين يدعوك ، فقلت له : وما الخبر ؟ قال : إنه كان نائما إلى جَنْب حظيّته فقام وهو يظنّها قائمة ، فألمّ بجارية أخرى ، وعاد إلى فراشه ، فغضبت حظيّته وتركته حتى نام ، ثم قامت ، ودخلت حجرتَها فانتبه وهو يظنّها عنده ، فطلبها فلم يجدْها ، فقال : مَنِ اختلس كريمتى ، وينحكم أين هى ! فأخبرناه أنّها قامت غَضْبَى ومضت إلى حجرتها . فدعا بك ، قال : فمضيت مع الرّسول وروّيت أبياتا فى طريقى ، فلما جئته خبّرنى القصة ، وقال لى : قل فى هذا شيئاً ، ففكّرت هُنَيْهة كأنّى أقول شعراً ، ثم أنشدته الأبيات :

غَضِبتْ أن زرتُ أخرى غضبةً فلها العُتْبى علينا والرِّضا[1]
يا فدتْك النفس كانت هفوةً فاغفريها واصفحى عمّا مَضَى
واترُكى العَذْل على مَنْ قاله وانسبى جَوْرِى إلى حكم القضا
فلقد نبّهتْنى من رقدتى وعلى قلبى كنيران الغضى

(١) ٧٠ ، وفى ط : « الحسن » تحريف .

فقال : أحسنتِ بحياتى ، أعدها علىّ يا حُسين ، فأعدتها عليه حتى حفظها . وأمر لى بخمسمائة درهم . فقام ومضى إلى الجارية فأنشدها الأبيات فتراضيا ، فكان بعدُ إذا رآنى تبسّم لموقع الأبيات ونجحِها عند الجارية ، والإحالة على القضاء بالذّنْب هو مذهب الجَبْرية فمن فعل منهم ذنبا قال : لا ذنب لى ، إنما قُدّر علىّ ومذهب القدريّة خلافه ، قال الشاعر فى ردّه :

إذا أذنبوا قالوا مقاديرُ قُدِّرَتْ وما العار إلا ما تجرُّ المقادِرُ

وقوله : غيّها ، أى فسادها . مستشرية : لاحية مصمّمة ، واستشرَى الشىء : انتشر ، واستشرَى فى أمره : لجّ فيه .

[وَأْد البَنَات]

والقتل الذى ذكره للبنات هو الوأد الذى كانت تفعله الجاهلية ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا المَوْءودةُ سُئِلَتْ . بأىّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾

والموءودة : الّتى تُدفَن حيّة ، فتنقل بالتراب ، والوأد : القَتْل .

وورد قيس بن عاصم المِنقَرِىّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : بعض الأنصار عن وأده البنات ، فقال قيس : ما ولدتْ لى بنتٌ إلاّ وأدتها ، وما رحمت منهنّ إلاّ واحدة ولَدَتْها أمها ، وأنا فى سَفَرٍ ، فدفعتْها إلى أخوالها ، وقدِمتْ فسألت عن الحمل ، فأخْبِرت أنها ولدت ميتاً . ومضت سنون ، حتى ترعرعت ، فزارت أمّها ذات يوم ، فدخلتُ فرأيتُها قد ضَفَرَتْ شَعْرها ، وجعلت فى قرونها شيئاً من الخَلُوق ، ونظّمت عليها ودَعاً ، وألبستها قلادة ، وجعلت فى عنقها مخنقة ، فقلت : مَنْ هذه الصبيّة فقد أعجبنى حسنُها ؟ فبكتْ ثم قالت : هذه ابنتك ، كنت خبّرتك أنّى ولدت ميتاً ، وهذه التى ولَدْت ، فجعلتها عند خالها ، وبلغتْ لهذا المبلغ . فأمسكتُ عنها حتى اشتغلتْ أمها ، ثم أخرجتها يوما ، فخفرتُ

حفرة فجعلتها فيها ، وهى تقول : يا أبت أتغطّينى بالتراب ! حتى واريتُها وانقطع صوتُها ، فما رحمت واحدة منهنّ ممن وأدتُ غيرَها . فدمعتْ عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إنّ مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحَم[1] » .

وذُكِرَ[2] أن قيساً وأدَ بيده بضع عشرة ابنة ، وكان السبب فى وأد البنات أن المشمرج[3] اليَشْكَرىّ أغار على قوم قيس ، فسبا نساء فيهنّ ابنته وابنة أخيه ، فدخل قيس إليهم فسألهمْ أن يهبوهما له ، فوجد المشمرج قد اصطفاهما لنفسه ، فسأله إياهما ، فقال : قد جعلت أمرهما إليهما ، فإن اختارتاك فخذهما ، فاختارتا المُشَمْرِج ، فانصرف فوأدَ كلّ ابنة له خوفا من الفضيحة ، فاقتدت به العرب فى ذلك .

قال الهيثم : إن الوأد كان مستعمَلا فى قبائل العرب قاطبة ، وكان يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام ، وقد قَلّ إلاّ فى تميم .

وقيل : كان الوأد فى تميم وقيس وبكْر وهوازن وأسد ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اشدد وطأتك على مُضَر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » ، فأجدبوا سبع سنين حتى أكلوا الوبر بالدم ، ولهذا جاء تحريم الدم ، وهذا خبر بيّن أنّ الوأد كان للحاجة لا للأنَفة ، وبه نزل القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلوا أولادَكُمْ خَشْيَةَ إملاق ﴾ ، وقال : ﴿ ولا يقتُلْنَ أولادهنّ ﴾ .

ومن ذَكَرَ أنه كان أَنَفةً وأنه كان فى تميم ، ومَنْ جاورهم فيحتج بحديث أبى عبيدة ، أن تميما منعت النعمان الإتاوة ، فوجّه إليهم أخاه الريان ، وجُلّ من معه من بكر بن وائل ، فاستاق النَّعم وسبَى الذّرارى . وفى ذلك يقول المشمرج اليشكرىّ :

---

(١) الخبر فى الأغانى ١٤ : ٦٩ ، ٧٠ (٢) الخبر فى الكامل ٢ : ٨٢

(٣) ط : « المستخرج » تصحيف ، وفى الأغانى ونهاية الأرب ٤ : ١٢٧ : « عمرو بن المشمرج » .

لمّا رأوا راية النعمان مُقبِلةً قالوا ألا ليتَ أدنى دارِنا عدَنُ
ياليت أمّ تميم لم تكن عرَفَتْ مُرّا[1] وكانت كمَن أودى به الزّمنُ

وقال النعمان فى جوابه :

لله بكرٌ غداةَ الرَّوْع لو بِهِمُ يُرْمَى ذُرا حضَنٍ زالت بهم حضَنُ
إذلا أرى أحداً فى الناس يُشبههم[2] إلا فوارس خامت عنهمُ اليمنُ

فوفدت إليه تميم ، فأناب إليهم ، وأحب البُقيا . وقال:

ما كان ضرّ تميما لو تعمّدها من فضلنا ما عليه قَيْسُ عَيْلانِ

فسألوه النساء ، فقال: كلّ امرأة اختارت أباها رُدّت إليه ، وإن اختارت صاحبها تُركت عنده فكلّهن اخترنّ آباءهنّ إلاّ ابنة قيس بن عاصم ، اختارت صاحبها عمرو بن المشرح ، فنذر قيس : ألاّ تولد له ابنة إلا قتلها .

فهذا شىء يَعْتَلّ به من وأد البنات ، ويقول : فعلناه أَنفة ، وقد كذّب بما أنزل الله تعالى فى القرآن المجيد . وأين فعلُ قيس فى الوأد وقساوة قلبه من فعل صعصعة بن ناجية بن عقال جدّ الفرزدق ! فإنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إنى كنت أعمل عملا فى الجاهلية لنفسى ، أينفعنى ذلك اليوم ؟ قال : وما عملك ؟ قال . أضللتُ ناقتين عُشَرَاوَيْنِ[3] ، فركبت جملا ومضيت فى بُغائهما ، فرُفِع لي بيت فقصدته ، فإذا شيخ جالس بفناء الدار ، فسألته عنهما ، فقال : هما عندى ، وقد أحيا الله تعالى بهما قوماً من أهلك مُضَر ، فجلستُ عنده ليَخرجا إلىّ ، فإذا عجوز قد خرجب من كِسْر البيت ، فقال لها : ما وَضَعَتْ ؟ فإن كان ذَكَراً شاركناه فى أموالنا ، وإن كان أنثى وأدْناها !

(١) ط : « مروا » تصحيف . (٢) الكامل : « أشبههم » .
(٣) العشراء : الناقة التى أتى عليها منذ حملت عشرة أشهر .

فقالت : وضعتْ أنثى ، فقلت : أتبيعنيها ؟ فقال : وهل تبيع العرب أولادَها ! قال : فقلت : إنما أشترى حياتَها لارقّها ، فقال : بكم ؟ فقلت : احتكم ، قال : الناقتين والجمل ، قلت : ذلك لك ، على أن يبلّغنى وإياها الجمل ، ففعل . فآمنتُ بك يا رسول الله ، وقد صارتْ لى سنّة فى العرب ، أشترى كلّ موءودة بناقتين وجمل ، فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائة موءودة ، قد أنقذتها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينفعك ذلك ، لأنك لم تبغ وجه الله ، وإن تعمل فى إسلامك عملا صالحاً تُثَبْ عليه » .

وقال الفرزدق يفتخر بفعل جدّه على جرير :

ألم تر أنـا بنـودارمٍ زُرارة منّـا أبو مَعْبَـدِ[1]
ومنّـا الذى منع الوائداتِ وأحيـا الوئيد فـلم تُوأَدِ
أيطلب مجـدَ بنى دارمٍ عطيـةُ كالجَمَـل الأسوَدِ
قَرَنَبى يحكّ قفـا مُقْرِفٍ لئـيمٌ مآثره قُعْـدُدِ
ومجـد بنى دارمٍ دونه[2] مكانُ السِّماكين والفَرْقَدِ

وعطية هو أبو جرير ، ويأتى فى الأربعين .

وجاء فى الحديث الترغيب فى إكرام البنات ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « مَن ابْتُلى بشىء من هذه البنات ، فأحسنَ إليهنّ كنّ له سِتْراً من النار » . وفى طريق آخر « مَنْ كان له ثلاث بنات ، وثلاث أخوات أو بنتان ، أو أختان ، فأحسنَ صحبتهنّ واللهَ اتقى فيهنّ ، فله الجنّة » .

ولبعضهم تهنئة بمولودة: اتّصل بى خبر المولودة ، كرّم الله غُرّتَها ، وأنبتها نباتاً حسنًا ؛ وقد علمتُ أنهنّ أقربُ إلى القلوب ، وإن الله عز وجل قد بدأ بهنّ

(١) ديوانه : ٥٠٢
(٢) الديوان : « فوقه » .

فى الترتيب، فقال سبحانه: ﴿ يَهَبُ لمنْ يَشاءُ إناثا وَيَهبُ لِمَنْ يشاء الذُّكُور ﴾ وماسّماه الله تعالى هبةً فهو بالشّكر أوْلَى ، وبحسنِ التقبّل أحْرى .

وقال بعض الشعراء :

أُحِبّ البنات وحُبّ البنا تِ فَرْضٌ على كلّ نَفْسٍ كريمَهْ
فإنّ شعيبا من أجل ابنتَيْـــه أخْدَمه الله موسَى كليمَهْ

وفى الحديث : « دَفْن البنات من المَكْرُمات » .

عزّى رجلٌ يحيى بن خالد فى حُرْمة له ، فقال: أيّها الوزير دَفْنُ الحَرَم من النِّعم ، ثم قال :

تَعَزَّ إذا رُزِئْتَ فخَيْرُ درعٍ يسربِلُ للمصائِب دِرْعُ صَبْرِ
فلم أر نعمةً شملتْ كريما كعورَة مسلم سُتِرَتْ بِقَبْرِ

وقال عمر بن أبى علقمة المرىّ :

إنّى وإن سِيق إلى المَهْرُ ألفٌ وعَبْدان وذَوْدٌ عَشْرُ
* أحَبُّ أصهارى إلىّ القبرُ *

وقال إسحاق بن خَلَف :

لولا أُميمةُ لم أجزعْ من العَدَمِ ولم أجُبْ فى الليالى حِنْدسَ الظُّلَمِ (١)
تهوَى حياتِى وأهوى موتَها شفقاً والموتُ أكرم نزّالٍ على الحُرَمِ (٢)

---

(١) ط : « أبو اسحاق » ، وهو خطأ .
(٢) ديوان الحماسة بشرح التبريزى ١ : ٢٧٤ ، وبعده هناك :

وزادنى رغبة فى العيش معرفتى ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرَّحِمِ
أحاذِرُ الفقر يوماً أن يُـلِمّ بها فيهتك السِّتر عن لحمٍ على وَضَمِ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

لكلِّ أبى بنتٍ يراعِى شئونَها ثلاثة أصهارٍ إذا ذُكِرَ الصِّهْرُ
فبيتٌ يغطِّيها وبعلٌ يصونُها وقَبْرٌ يُوارِيها وخيرُهمُ القَبْرُ

وقال آخر :

لاتيأسنْ منها فقد زوّجتُها كفؤا وضَمِنْت الصَّدَاق مَليكا

* * *

حتّى نَهانِى الشَّيْبُ لَمّا بَدَا فى مَفْرِقِى عن تِلْكُمُ المَعْصِيَهْ
فلم أُرِقْ مذْ شاب فَوْدِى دماً من عاتِقٍ يَوْماً ولا مُصْبِيَهْ
وهأنذا الآنَ على ما يُرَى منِّى ومِنْ حِرْفتى المُكْدِيَهْ
أَرُبَّ بِكْرًا طالَ تَعْنِيسُها وحَجْبُها حتّى عن الأهوِيَهْ
وهى على التَّعْنِيس مَخْطوبَةٌ كخِطبَةِ الغانيةِ المُغْنِيَهْ
ولَيْسَ يَكفِينى لتجهيزها على الرِّضا بالدُّونِ إلاَّ مِيَهْ
واليدُ لا تُوَكى على دِرْهَمٍ والأرْضُ قفرٌ والسَّماء مُصْحِيَهْ
فهلْ معينٌ لى على نَقْلِهَا مصحوبةً بالقَيْنَةِ المُلْهِيَهْ
فيغسِلَ الهمَّ بصابونِهِ والْقَلْبَ من أفكارِه المضنِيَه
ويقتنى منِّى الثناء الَّذى تَضُوعُ رَيَّاهُ مع الأدعِيَهْ

* * *

قوله : فَوْدِى ، أى ناحية رأسى . مُصبِية : لها صَبْوة ، أو يصبو إليها مَنْ رآها ، وجعل الخمر مُصْبِية ، لأنّها تغلب شرّابها فتصيّرهم سكارى ، كقولهم

عقول الصبيان ، فهى تلعبُ بهم كما تلعب الأمّ بصبيانها . جِرْ فَتِى : صنعتى الكدية : الصعبة ، وأكدى الحافرُ : بلغ كدية ، فرفع عن الحفر آيساً من الماء ثم استُعير لغير ذلك أُرُبّ : أصلِح . تَعْنيسها : إقامتها بغير زوج .

قال عمر رضى الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مكتوب فى التَّوراة : مَنْ بلغتِ ابنته اثنتى عشرة سنة ، فلم يزوّجها فأصابت إثما فإثم ذلك عليه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ بلغَ له ولد النكاح وعنده ما ينكحه به فلم ينكحه ، فأصاب إثماً فالإثم بينهما » . ويَعْنى بها خرزاً قديمة حجبها عن الأهوية ، لئلا يُفْسدها الهواء .

قوله : مخطوبة : مطلوبة . الغانية : البارعة الجمال التى غَنِيتْ بحسنها عن الزينة ، قال الرُّسْتمى : أصلها فى ذات الزوج التى استغنت بزوْجِها ، ثم قيل فى غير ذات الزوج . قال عمارة : هى الشابّة التى تعجب الرجال ويعجبونها . المُغْنية : التى نشأت فى الغِنى ، وأغنَى بمعنى استغنى ، والمغنية أيضاً : التى تغنى زوجها عن غيرها لكمال خصالها . تُوكاً : تُشدّ وتربط ، والوِكاء : الخيط يشدّ به فم الوعاء .

وراود عبدٌ فى الجاهليّة ابنةَ سيِّده عن نفسها ، فأمكنته حتى بلغ أربه منها ، ثم عِدتْ إليه فجبّته . فقال لها أبوها فى ذلك ، فقالت : مَنْ ورد غير مائه ، صدَر بمثل حالِه ، إنّ العبد لمن نوكه قد ابتذل إناء لم يوكِه ، فقال أبوها : يابنيّه لاشالا ولا عى .

وميّه : محذوفة اللام ، ولا يدرى أواو لامُها أم ياء ، قاله صاحب العين . وقال ابنُ الأعرابىّ : امْأيت القومَ ، وأمأيتُهم : صاروا بى مائة ، ففى مأيت دليل قاطع على أن اللام ياء .

وقال الفراء رحمه الله تعالى وكُراع : أصلها مِئية ، وأنشد :

فقلتُ والرّكب قد تُخْطِيه منيّتُه أدنى عطيات آبائى مثياتُ

قوله : قَفْر: غير عامرة. مُصحية : زال سحابها، ضربه مثلا للخُلوّ من المال ، فلا فى أرضه خصب فتعمر من أجله ، ولا فى سمائه سحاب فيرجَى خيرُها . وقد تقدّم لغيمى مطر .

القَيْنة الملهية : الجارية المغنّية ، وهى فى كلام العرب الأَمَة ، مغنّية كانت أو غيرَ مغنّية ، قال زهير :

• ردّ القيان جِمالَ القوم فاحتملوا[1] •

واشتقاقها من قُنتُ الشىء أقينه قَيْناً ؛ إذا لمسته ، قال الشاعر :

ولى كَبِدٌ مجروحةٌ قد بدا بها صدُوع الهوى لو أن قيناً يَقِينُها[2]

ولهذا سمِّىَ الصّواغ والحداد قَيْنًا ، والماشطة قَيْنة .

قوله : فيغسل الهمّ بصابونه : يعنى فينفى هَمّى بالخمر لأنها تنفى الهمّ والحزن والغم كما يغسل الصابون وسخ الثوب . المضنية : المَمْرضة . يقتنى : يكتسب . تضوّعَ ريّاه : تتحرك رائحته ، يريد أنه يكتسب منه السامع الدعاء فيثنى عليه ثناء حسنا فى الدنيا ويدعو له بالآخرة ، ويقال: ضاعَ المسك يضُوع، أى انتشرت رائحته ، وقال الشاعر :

وما هو إلاّ المِسْكُ عند ذوِى الحجى
يَضُوع وعنـــد الجاهلينَ يضيعُ

---

(١) ديوانه ١٦٤ ، وبقيته:

• إلى الظهيرة أمرٌ بينهمْ لَبِكُ •

(٢) اللسان ـ قين

قال الراوى : فلمْ يَبْقَ فى الجماعة إلاَّ مَنْ نَديتْ له كَفُّه ، وانباعَ إليه عُرْفُه فمَّا نجحتْ بغيتُه ، وَكَمُلَت مِنَّتُه ، أخذ يُثْنِى عليهمْ بصالح ، ويُشَمِّر عن ساق سارح ؛ فتبعته لأستعرفَ رَبِيبَةَ خِدْرِه ، ومَنْ قتل فى حِدْثان أمره ، فكأنَّ وَشْكَ قيامِى ، مثَّلَ له مَرَامى . فازدلَف منّى ، وقال : ا فْقَه عنِّى :

قَتْل مِثلى يا صاحِ مَزْج المُدام لَيْسَ قَتْلِى بلَهْذَمٍ أو حُسامِ
والَّتِى عُنِّسَتْ هى البِكْرُ بنتُ الـ ـكَرْمِ لا البِكْرُ بنتُ الكرامِ
ولتجهيزها إلى الكأْسِ والطَّا سِ قيامى الَّذِي تَرَى ومُقَامِى
فتفَهَّمْ ما قلتُه وتَحَكَّمْ فى التَّغاضِى إنْ شئتَ أو فى المَلامِ

ثم قال : أنا عِرْبيدٌ ، وأنت رِعْديد ، وبيننَا بَوْنٌ بَعِيد . ثمَّ ودَّعنى وانْطَلَقَ ، وزوَّدنِى نَظْرةً من ذى عَلَق .

* * *

ندِيت : كرمت . انباع : سال . عُرْفه : معروفه . نجحت : انقضت وتمت ، بُغْيته : طَلِبته . طَفِق : أخذ وجعل . سارح : ذاهب ، يريد أنه شمّر للسير ، وأضاف ساقا لسارح ، وهو يريد : عن ساق رجل سارح ، أى ذاهب . ربيبة خدره ، أى الّتى رباها فى بيته ، ورَبيبة الرجل بنت امرأته من غيره ، قيل لها ذلك لأنه يربّيها فهى « فعيلة » بمعنى مفعولة ، فأصلها مربوبة ، ويقال : ربّ فلان فلانا وربّاه وربَّبَه وتربّبه بمعنى واحد . حدْثان : أول . وَشْك : سرعة . مرامى : مرادى ومطلبى . ازدلف : قَرُب ، ويقال : قتلت الخمر ، إذا مزجتَها ، وقد فسره بقوله : مزج المدام .

[حكايات وأشعار حول الخمر]

قال الأخطل :

فقلت اقتلُوها عنكمُ بِمِزَاجها وأَحْبِبْ بها مقتولةً حين تُقْتَلُ[1]

وكان الأخطل خليعاً ، فأتى هنا على الممزوجة . وقال فى التى لم تمزج :

وكأسٍ مثل عين الديك صرفٍ تُنسى الشاربينَ لها العُقُولا[2]
إذا شرب الفتى منها ثلاثاً بغير الماء حاوَل أن يَطُولاَ
مشَى قرشيَّةً لاشكّ فيها وأرخى من مآزره الفُضُولا

• • •

وأصبح عبد الملك يوما فى غَداةٍ باردة ، فأنشِد هذه الأبيات ، ثم قال : كأنّ الأخطل الآن فى حانوت خمار محلّل الإزار ، مستقبلَ الشمس . ثم بَعَث مَنْ يطلبه بدمشق ، فوجده كما وصف .

وقال له يوما: ألا تُسْلِم فنفرِضَ لك فى الفىء ونعطيك عشرة آلاف درهم ! قال: فكيف بالخمر ؟ فقال له عبد الملك : وما تصنع بها ،وإنّ أوّلها مُرّ وآخرها سُكْر ! قال الأخطل : وفيما بين هاتين منزلة مايسرّنى لىَ بها .

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه وقد أُعطِىَ كأس خمر ممزوجة :

إنّ التى ناولتِنِى فرددتُها قُتِلَتْ ـ قُتِلتَ ـ فهاتهالم تُقتل[3]
كِلْتاهما حلَب العصير فعاطِنِى بُزجاجة أرخاهما لِلْمَفْصَلِ

فدعا بالقتل على الذى أعطاها له ممزوجة .

---

(١) ديوانه ٤ ، وروايته : « فأطيب بها » .
(٢) ديوانه ٣٧١ (٣) ديوانه ٣١١

وذكر الحريرى فى الدّرة[1] البيتين ، وقال فى قوله : « أرخاها » القياس : أشدّها إرخاء للمفصل ، لأنّ أصل هذا الفعل أرخى ، فبناؤه ليس مقيساً كما قالوا : « ما أحوجه إلى كذا فبنوه من حوج ، وإن كان قياسه : ما أشدّ حاجته .

ولهذين البَيْتين حكاية يحسن أن نعقبها بروايتها ، ونضوع نشرها بنشر مُلَحِها ، وهى ما رواه أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارىّ عن أبيه ، قال : حدّثنا الحسن بن عبد الرحمن الربعىّ قال : حدّثنا أحمد بن عبد الملك بن السّماك السعدىّ قال : حدّثنا أحمد بن ظبيان الحائز ، قال : اجتمع قوم على شراب لهم ، فغنّاهم مغنّيهم بشعر حسان : « إن التى » البيتين . فقال بعضهم : امرأتى طالق إن لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضى عن علّة هذا الشعر ، لم قال : « إن التى » ، فوحّد ، ثم قال : كلتاهما ، فثنّى ؟ فاشفقوا على صاحبهم وتركوا ما كانوا عليه ، ومضوا يتخطّوْن القبائل ، حتى انتهوا إلى بنى شُقْرة وعُبيد الله ابن الحسن يصلّى ، فلمّا فرَغ من صلاته قالوا : قد جئناك فى أمرٍ قد دعتْنا إليه ضرورة ، وشرحوا له خَبَرَهُم ، وسألوه الجواب ، فقال :

• إنّ التى ناولتِنى فرددتها •

عَنَى بها الممزوجة بالماء ، ثم قال : من بعد : كِلْتاهما حلَب العصير ، يريد الخمر المحتلبة من العنب ، والماء المتحلب من السحاب ، المكنّى عنها بالمعصرات فى قوله تعالى : ﴿وأنزلنا من المُعْصرات ماء ثجّاجا﴾ ، قال الشيخ الإمام الأجلّ الأوحد العالم أبو محمد أدام الله سعادته : فهذا ما فسره به عبيد الله بن الحسن .

وقد بقى فى الشعر ما يحتاج إلى كشف سرّه ، وتبيان نُكَته ، أما قوله :

إن التى ناولتنى فرددتها قتلت قتلت . . .

فإنه خاطب به السّاقى الذى كان ناوله كأساً ممزوجة ، لأنه يقال : قتلتُ الخمر إذا امزجتَها ، فكأنه أراد أن يعلمه أنه قد فطن لما قَدْ فعله ثم ماانقنع منه بذلك

(١) درة الغواص ٧٣

حتى دعا عليه بالقَتْل فى مقابلة المزح . وقد أحسن كلّ الإحسان فى تجنيس اللفظ ، ثم إنه عقّب الدعاء عليه بأن استعطى منه ما لم تقتل - يعنى الصَّرْف - التى لم تمزج .

وقوله : أرخاها للمفصل ، يعنى اللِّسان ، وسُمِّىَ مِفْصَلاً بكسر الميم ، لأنه به يفصَل بين الحق والباطل ، وليس فيما اعتمده عبيد الله بن الحسن من الإسماح وخفض الجناح ، ما يقذِف فى نزاهته أو يغضّ من نُبْلِه وبراعته .

ويضارع هذه الحكاية فى وطأة القضاة المتقشِّفين المستفتين وتلاعُبهم فى مواطن اللّين ، ما يحكى أن حامد بن العباس ، سأل علىّ بن عيسى فى ديوان الوزارة عن داء الحُمار ، وعن دوائه ، فأعرض عن كلامه ، وقال : ما أنا وهذا للمسألة ! فخجل حامد منه ، ثم التفت إلى قاضى القضاة أبى عَمرو ، فسأله عن ذلك فتنحنحَ القاضى لإصلاح صوته ، ثم قال : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (١) ، وقال النّبىّ عليه الصلاة والسلام : « استعينوا على الصناعات بأهلها » . والأعشى هو المشهور فى الجاهلية بهذه الصناعة ، قال :

وكأسٍ شَرِبْتُ على لذّةٍ وأخرى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا (٢)
لكى يعلَمَ النّاسُ أنّى امرؤ أتيت المروءة من بابِهَا

ثم تلاه أبو نواس فى الإسلام ، فقال :

دعْ عنك لومى فإنّ اللوم إغراء وداوِنى بالّتى كانَتْ هى الدّاءُ (٣)

فأسفَر حينئذ وجْه حامد ، وقال لعلىّ بن عيسى : ما ضرّك يابارد أن تجيبَ

(١) سورة المائدة ٤١
(٢) دايونه ١٧٣
(٣) ديوانه ٢٣٤

بعض ما أجاب به قاضي القضاة ؛ وقد استظهر في جواب المسألة بقوله سبحانه أولا ، ثم بقول الرسول عليه الصلاة والسلام ثانياً ، وبيّن الفتيا وأدّى المعنى ، وتفصّى من العهدة . فكان خجل عليّ بن عيسى من حامد بهذا الكلام أكثر من خجل حامد منه ، لما ابتدأه بالمسألة وتبع حسانَ مسلمُ بن الوليد ، فقال وأحسن :

إذا شئتما أن تسقياني مُدامةً فلا تقتلاها كلّ مَيتٍ محرّمُ[1]
خلطنا دماً من كَرْمة بدمائنا فأظهرَ في الألوان منّا الدمَ الدمُ

وقال أبو نواس في الصَّرف :

وكُمَيْتٍ أرقّها وهَجُ الشمـــــس وصيفٌ يفنى بها وشتاءُ
لم يَشِنْها الطاهي بطبخ ولا غيّـــــرها عن طبيعةِ الكرْم ماءُ

وقال فيه أيضاً :

توارتْ من الأبصار من عهد آدمٍ حِذارًا لكون الماء يوماً قرينُها[2]
فصُنْها عن الماء القراح وأسقِني فإنك إن لم تسقِني متّ دُونَها

على أنه القائل :

ألا دارِها بالماء حتى تلينَها فلن تكرمَ الصّهباء حتى تهينَها

وقال أبو نواس لإخوانه في مرض موته : إياكم والخمر صِرفا فإنها أحرقت كبدي ، قال ابن رشيق :

قِدْرُ المُدامة فوق قِدْر الماء فارغَبْ بكأسك عن سِوَى الأكفاء[3]

---

(١) ديوانه ١٧٩ .
(٢) ديوانه ٣٤٩ .
(٣) التنف ٥ .

مالى ومَزْجَ الرّاح إلاّ فى فمى بالرّيق من فم غادةٍ حسناء
ذاك المِزاج وإن تعدّانى الّذى فى لُزْنَ من ذى رقّةٍ وصفاء
أشهى وأبلغ فى الفؤاد مَسَرّةً من غيره وأدبّ فى الأعضاءِ
لِى الصِّرْفُ إن مَزَجَ النّديم ولم أكُنْ مستأثراً فيها عن النُّدَماءِ

وقال أيضاً :

قلت لمن ناولَنِى مُرّةٍ ما بِىَ حُبّ الغِيد بل حُبُّها[1]
لا تسقنى راحَكَ ممزوجةً واشرب فما يمكننى شربُها
ما راحتى فى الرّاح إن غُيّرَتْ دعها كما جاء بها رَبُّها

ونصلُ بهذا النّمط ، ما قيل فى نبيذ الزبيب ، قال أبو الأسود الدؤلىّ :

دع الخمر يشربها الغواةُ فإنّنى رأيتُ أخاها مغنياً بمكانِها
فإن لا يكنْها أو تكنْه فإنّه أخوها غذَتْهُ أمُّهُ بلبانِها

يقول : إن لا يكن الزبيب الخمر أو الخمر الزبيب، فإنهما أخوان غذيا بابن واحد وهى الحبّة التى هى أصل العنب والزبيب ؛ فأحدهما ينوب مناب الآخر ، وأنشد الحامضىّ :

تركتُ الحيّا لستُ أختار شربَها وما حاجتى فى أن أمرّ الأعاديا
ولكنّ أخرَى من نبيذٍ معتّق يمنّيك إن أكثرت منه الأمانيا
أخو الخمرِ من عنقودها غير أنهمْ إذا قطعوها جَفّفُوه لياليا

قال المأمون : نقلت هذا المعنى بأبيات ملوكية لا تحضر السوقة بمثلها :

---

(١) التنف ٧

صلّى النّدْمان يوم المهرجانِ بكأسٍ من معتّقةِ الدِّنانِ
بكأس خمرٍ وإنّى عتيقٌ فإنّ العبد عبد خمروانى
وجنّبنى الزّبيبين طرّا فشأن ذوى الزّبيب خلاف شانى
فأشربها وأزعمها حراماً وأرجو عفو ربّ ذى امتنانِ
ويشربها ويزعمها حلالاً وتلك على الشّقىّ خَسارتان

سأل رجل شريحاً القاضى : هَلِ النبيذ حلال أم حرام؟ فقال : حلال، فقال: قليله خيرٌ أم كثيره؟ قال : قليله ، قال الرجل: مارأيت حلالاً وقليله خير من كثيره إلا هذا .

وقال قُتيبة بن مسلم لقاضى مَرْو : بلغنى أنك شربتَ النبيذ ، قال : نعم أصلحك الله ! أشربُ منه ما يسلّى العقل ويُطيب النفس ، ويُغْنِى عن الماء، ويهضم الطعام ، قال : فما أبقيت ؟ قال : أبقيت أخبثَه وأردأه ، الاتّكاء على الشمال ، ومنادمة الرجال ، والاختلاف إلى المبالِ .

وترك رجل النبيذ فقيل له: لِمَ تركتَه وهو رسول السرور إلى القلب ؟ فقال: ولكنه بئس الرسولُ ! يُبعثُ إلى الجوف فيذهب إلى الرأس .

• • •

قوله لنهزم : هو سِنان الرُّمْح . بنت الكرم : الخمر ، وتجهيزها : حملها . والطاس : إناء الخمر كالإبريق يصبّ منه الشراب فى الكأسِ ، وجمعه طاسات ، قال الناشِى :

وكأنّما الطاسات مما حَوْلَها من نورها يَسْبَحْنَ فى ضَحْضَاحِ
لو بُثّ فى غسق الظلام ضياؤها طلع المساء بغُرّة الإصباح

[مما قيل فى ذم الغناء ومدحه]

وقدّم فى المقامة أنّه لا يجهزها إلا مصحوبة بالقينة، أى لا يشربها إلا بالغناء .

وقد ذمّوا الغناء ومدحوه ، فأما ذمّه ، فقال الكندىّ : الغناء بِرْسام حادّ ، لأن المرء يسمع فيطرَب ، ثم يسمح فيفتقر ، فيغتمّ فيمرض فيموت .

وقال يزيد بن الوليد: إياكم والغناء فإنه يُسقط المروءة ، وينقص الحياء ، ويبدى العَوْرة ، ويزيد فى الشهوة ، وإنه لينوب عن الخمر ، ويصنع بالعقل ما يصنع به السّكر وإن كان ولا بد فجنّبوه النساء ، فإنّ الغناء داعية الزنا .

وأما مدحه فقال ربيعة بن عبد الرحمن : السماع مطربة ، وهو من نتيجة العقل ، فمَنْ كَرِه السماع ، دلّ بذلك على قلة عقله .

وقال بعض الفلاسفة ، جُعلت اللّذات خمسا فى خمس، فجعل اللمس لليدين، والشمّ للمنخرين، والسمع للأذنين، والذوق للسان، واللون للعينين ، وعلى كلّ جارحة تعب من اللذات إلا النّغمة ، فإنه لا تعب على الأذنين فيها ، ولذلك صار النّاس كلُّهم عربيُّهم وعجميّهم ، صغيرهم وكبيرهم مشتركين فى الإصاخة إلى النّغمة الحسنة ، والصوت المستمتع ، متباينين فى غير ذلك . وقد يوجد أكثرها فى أكثر الحيوان كالخيل يصغر لها عند الشرب ، فتشرب والإبل يحدَى لها فتنقاد ، قال الشاعر :

فليس الشّراب إلاّ باللاهِي وبالحرَكاتِ فى بَمٍ وزِيرِ
فلا تشربْ بلا طَرَبٍ فإنى رأيتُ الخيلَ تشربُ بالصَّفِيرِ

وقال آخر :

فانظر إلى الإبلِ الّتى هى - وَيْكَ - أغلظُ منك طَبْعا

تُصغِى إلى صوت الحدا ... ةِ فتقطعُ الفَلَواتِ قطعا

قوله : التغاضى أى التغافل . عِرْبيد : سيىء الأخلاق عند سُكْرِه ، وهو الّذى يؤذِى بيده ولسانه أصحابه . رِعْدِيد : جَبَان فزّاع . بَوْن : فضل ومزيّة من ذى عَلَقٍ ، أى من صاحب محبّة ؛ هو مثل يضرب لمن ينظر بودّ ومحبّة ابن طريف : العَلَق: الحبّ ، وعلِق فلانٌ فلانَة ، أى أحبّها. والله الموفق .

obeikandl.com

المقامة السادسة والثلاثون الملطية

أخبر الحارث بن همّام قال : أَنَخْتُ بِمَلَطِيَّة مَطِيَّةَ البَيْن ، وَحَقِيبَتِى مَلْأَى من الْعَين ؛ فجَعَلْتُ هِجِّيرَاىَ ، مُذْ أَلْقيتُ بِهَا عَصَاى ؛ أن أتَوَرَّدَ مواردَ المَرَحِ ، وأتَصَيَّدَ شَوارِدَ المُلِحِّ ؛ فَلَمْ يَفتْنِى بِهَا مَنظرٌ ولاَ مَسْمَع ؛ ولاَ خَلاَ مِنِّى مَلْعَبٌ وَلاَ مَرْتَع ؛ حَتَّى إذا لم يَبْقَ لِى فيهَا مأرب ، وَلاَ فى الثَّواء بِهَا مَرْغَبٌ ، عَمَدْتُ لإنفاقِ الذَّهَب فى ابتياعِ الأُهَب . فَلَمَّا أكْمَلْتُ الأعداد ، وتَهَيَّأَ الظَّعْنُ فيهَا أوْ كَادَ ، وَجَدْتُ بِهَا تِسْعَةَ رَهْطٍ قد سبئوا قَهْوَة ، وارتبئوا رَبْوة ، ودَمَاثَتُهُمْ قَيْدُ الأَلْحَاظ ، وفُكَاهَتُهُمْ حُلْوةُ الأَلْفَاظ ، فنحوتُهُمْ طَلَباً لِمُنَادَمَتِهِمْ لاَ لِمُدَامَتِهِمْ ، وشَغَفًا بِمِزَاجَتِهِمْ لا بِزُجَاجَتِهِمْ .

* * *

أنَخْتَ المَطِيّة : صيّرتها باركة بالأرض .

[ذكر ملطية]

مَلَطِيَّة : بلد بالجزيرة ذات أنظار وقُرى ، بينها وبين الرَّقَّة خمسون فرسخاً ، والرَّقَّة : أمّ قرى الجزيرة ، وذكرها المسعودى فى شعره فقال :

ولم يحلبوها من وراء مَلَطْيَةٍ (١) تصدَّع أجبالٌ بها وأكامُ

(١) ضبطها ياقوت : « بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء » قال : والعامة تقول بتشديد الياء وكسر الطاء » .

وقيل : مَلَطْية فى ثغر الشأم .

قال اليَعقوبىّ : ملطْية هى المدينة العظمى ، وكانت قديمة فأخربها الرُّوم ، فبناها المنصور سنة تسع وثلاثين ومائة ، وجعل عليها سورًا واحداً ، ونقل إليها عدّة قبائل من العرب ، قال : وهى فى مستوٍ من الأرض يحيط بها جبال الروم ، وماؤها من عيون وأودية من الفرات ، وخفّفها المتنبى ضرورةً فقال :

وكرّتْ فدرّت فى دماء مَلَطْيَةٍ مَلَطْيَةُ أمٌّ للبنين ثَكُولُ[1]

قوله : مطيّة البين ، يريد ناقة السفر ، أى أقام بها وترك السفر . الحقيبة : وعاء الرحل . والعَيْن : الذهب . هِجّيرَاى : عادَتى . وألقى بها عصاه ، أى أقام بها وترك السفر . أنورّد : أطلب وأدخل ، وتوردّت الإبل الماء : دَخلته قِطعةً قطعة . والمرح : النشاط . شوارد : نوافر ، وأراد أنه أتبَع نفسه جمعَ اللذات بملطيّة وشاهدَها . مرتع : موضعٌ خصيب كثير الطعام . مآرب : حاجة . الثّواء : الإقامة . عمدت : قصدت . ابتياع الاهَب : اشتراء العُدد للسَّفَر . الظّعن : الارتحال . الرَّهْط . الجماعة من ثلاثة إلى عشرة . سبَئُوا قهوةً : اشتروا . ارتبئوا ربوة : طلَعوا كُدْيةً ، وقال الحسن :

وفتيانِ صِدْقٍ قد صرفتُ مطيَّهمْ إلى بَيْتِ خَمّارٍ نزلْنا به ظُهرَا[2]

أتينــا يهوديا تجمّل ظاهرًا

ويُضمِرُ فى المكنون من سِرِّه الشَّرّا

فجاء بهــا زَيْتيَّةً ذهبيّةً فلم نستطعْ دون السُّجود لها صَبْرَا

خَرجْنا على أنّ المُقام ثلاثةٌ فطابتْ لنا حتى أقمنا بها شهرَا

---

(١) ديوانه ٣ : ١٠٢ .

(٢) ديوانه ٢٧٢ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .

وقال فى شراء الخمر بثيابه :

نجوتَ من اللص المغير بسيفه إذا مارماه بالتجار سَبِيلُ[١]
واصَلْتُ[٢] خمّارا علىّ بخمرة فراح بأثوابى[٣] ورُحْتُ أَميل

وقال الأمير تميم بن المعز :

شَربْنا على نَوْح المطوّقة الوُرْقِ وأَرْدية الرَّوْضِ الملفّفَةِ البُلْقِ[٤]
معتّقة أفنى الزمان وجودَها فجاءت كفوت اللَّحْظِ أورقةِ العِشْقِ
كأنّ السحاب الغرّ أصبَحْن أكؤُساً
لنـا وكأنّ الرّاحَ فيها سَنَا البرق
فبتنا نحثّ الكأس حثًّا وإننا لنشربُها بالحثّ صِرْفا ونَسْتَسْقِى
إلى أن رأيت النّجْم وهو مغرِّبٌ
وإقبال[٥] رايات الصّباح من الشّرْقِ
كأنّ سوادَ الليل والفجر طالعٌ
بقيّة لَطْخِ الكُحْل فى الأعين الزُّرْقِ[٦]

وأحسن فى هذا المعنى ماشاء ، إلاّ أنه جعل شربنا فى الرّوض على نوح الحمام ، ولو عوّض من لفظ « النوح » لفظ الغناء أو التغريد لكان أتمّ لِلذّته ، كما قال ابن الرومىّ :

وأذكى نسيم الروض ريعانَ ظِلِّهِ وغنّى مغنّى الطّيْرِ فيه فَرَجّعَا[٧]

---

(١) ديوانه ٣٢٣ (٢) ديوانه : « وسلطت »
(٣) الديوان : « بأسلابى »
(٤) ديوانه ٢٩٦ وفيه : « الملفوفة » .
(٥) الديوان : « وأقبل »
(٦) الديوان : « بقايا مجال الكحل فى الأعين الزرق » .
(٧) نقله البارودى فى مختاراته ٤ : ٧٥ .

وكانت أهازيج الذّباب هنا كمُ على شدوات الطير صوتا موقّعا

وقال آخر :

وكأسٍ كريق الإلف شَعْشَعها به
وعيْشىَ مِنْ هذا الشَّراب المُشَعْشَعِ
إذا ماشَرِبنَا كأسَها صبّ فضلَها على رَوْضِنَا للمُسمِع المُتَخَلِّعِ

المسمع : المغنّى ، يعنى به الذباب الذى ذكره عنترة فى قوله :

فترىَ الذباب بها يُغنّى وحده هَزِجًا كفعل الشّارب المترنّم[1]

وإنما ذكر الحريرىّ الرّبوة ، لأنّ النّبات فيها أحسن وأسلم من نبات الانخفاض ، لأن نبات الانخفاض وَخِم ، قال الله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أصابها وابلٌ فآتَتْ أُكُلَها ضعفين ﴾[2] . وقال المتنبى[3] :

* نحنُ نَبْتُ الرُّبَّا وأنت الغمام *

قوله : دمائثهم قَيدُ الألحاظ، أى سهولة أخلاقهم تقيّد عيون الناظرين إليهم، حتى لا ينظروا إلى غيرهم ، قال ابن المعتزّ :

مَنْظَرهُ قَيد عُيونِ الوَرَى فليس خَـــلْقٌ يتلقّاهُ

نحوتهم : قصدتُهم . شغفا : حُبًّا .

* * *

(١) من المعلقة ص ١٨١ ـ بشرح التبريزى ، ورواية البيت هناك .

وَخَلاَ الذُّبابُ بِهَا فليْسَ ببارِحٍ غَرِدٍ كفِعْلِ الشاربِ المُتَرَنِّمِ

(٢) سورة البقرة ٢٦٥ (٣) ديوانه ٣ : ٣٤٣، وصدره :

أينَ أزْمَعْتَ أيُّهذَا الهمامُ

(٤) ديوانه

فلمّا انتظمتُ عاشِرَهُمْ ، وأَضْحَيْتُ معاشِرَهم ، أَلْفيتُهُمْ أبناء عَلاّتٍ ، وقَذائفَ فَلَوَاتٍ ؛ إلاّ أنّ لُحْمَةَ الأدب ، قدْ أَلّفتْ شَمْلَهُمْ أُلْفَةَ النّسب ؛ وساوَتْ بينهم فى الرُّتَبِ ؛ حتّى لاَحُوا مِثْلَ كواكبِ الجوْزاء ، وبَدَوْا كالجملةِ المتناسبةِ الأجزاء ، فأبهجنى الاهتداءُ إليهم ، وأحْمَدْتُ الطّالِعَ الّذى أَطْلَعَنِى عَلَيْهِمْ ، وطَفِقْتُ أُفيضُ بقِدْحِى مع قِداحِهِمْ ، وأَسْتَشْفِى برياحِهِمْ لابراحِهِمْ ، حَتّى أدّتْنَا شُجُونُ المُفاوضة ، إلى التّحاجى بالمُقايَضَة ، كقولك إذا عنيت بِهِ الكرامات : مامثلُ النّوْم فات ؛ فأنشأنا نَجْلو السُّهَا والْقَمَر ، ونجنى الشَّوْكَ والثَّمَر .

* * *

انتظمت : سرت معهم فى نظام واحد ، والنظام الجوهر . معاشرهم : مصاحبهم . ألفيتُهم : وجَدْتُهم . أبناء عَلاّتٍ ، أى غرباء من بلاد مختلفة ، وبنو العَلاّت : الذين أبوهم واحد وأمّهاتهم شتى . قذائف فَلَوات ، أى قد رمت بهم القفار ، والطرق المختلفة واحدتها قذيفة ، وهى التى يُقذف أى يرمى بها . لحمة ، أى قرابة . ألفت شَمْلَهم : أى جمعت متفرّقهم ، وجعل للأدب لحمة مجازا ، وجعل الأدب يجمعهم كما يجمع بنى العَلاّت الأب ، والبلاد تفرّقهم ، كما تفرّق بنى العَلاّت الأمّهات .

[مما قيل فى المودة بين الشعراء]

وهذا نحو مايُحكى[1] أنّ دِعْبِلاً ذُكِرَ عند علىّ بن الجهم فكفّره ولعنه ، وقال : كان يَظْهَر على أبى تمام وهو خير منه ، ديناً وشِعْرًا ، فقال له بعض من حضر : لو أن أبا تمام أخوك مازِدْت على مدحك له ، فقال : إن لم يكنْ

(١) الخبر فى أخبار أبى تمام للصولى ٦١ ، ٦٢ .

أخى فى النَّسَب ، فهو أخى فى المودّة والأدَب ، أما سمعتَ ماخاطبنى به » وأنشد لأبى تمّام :

إن كان يجمعنا الإخاء فإننا نَغْدُو ونَسْرِى فى إخاء تالدِ[1]
أو يَفترق نسبٌ يؤلف بيننا أدب أقمْنَاه مقـــامَ الوالدِ

وكرّر أبو تمام هذا المعنى ، فأحسَن بقوله :

ذُو الوُدّ منى وذو القربى بمنزلةٍ وإخوتى أسوةٌ عندى وخِلاّنِى[2]
عصابة جاورتْ آدابُهم أدبِى فهم وإن فُرِّقوا فى الأرض جيرانِى[3]
أرواحُنا فى مكانٍ واحدٍ وغدت أجسامنا فى عِرَاقٍ أو خُرَاسَانِ

وأنشد إسحاق الموصلى :

يقولونَ لى هَلْ من أخٍ أو قَرَابةٍ فقلت لهم إن الشُّكول أقاربُ
نَسِيبِىَ فى رأيى وعزمى ومَذْهبى وإنْ باعدتْنَا فى الولاء المناسبُ
وليس أخِى إلا الصحيحُ وِدادهُ ومَنْ هو فى وَصْلِى وقُرْبِىَ راغبُ

وكان لسليمان بن وهب نديمٌ يأنس به، فعرَبَدَ عليه ليلةً فطرحه وجفاه فوقف له بالطريق ، فلمّا مرّ به وثب إليه ، ثم قال : أيّها الوزير ، لاتكُنْ فى أمرى إلاّ كما قال علىّ بن الجَهْم :

القوم أخدانُ صِدْقٍ بينهمْ نسبٌ من المودّة لم يُعدَلْ به نسبَ[4]
تراضعوا دِرّةَ الصَّهباء بينهمُ فأوجبوا لرَضِيع الكأس مايجبُ
لا يحفظون على السَّكْرانِ زَلّتَهُ ولا يريبكَ من أخلاقهم رِيبُ

فقال : قد رضيت عنك رضا صحيحا ، فعُدْ لشأنك .

---

(١) ديوانه ٨٦ ، وبعده :

أوْ يختلفْ ماء الوِصالِ فماؤنا عَذبٌ تحدّر من غمامٍ واحدِ

(٢) وفيه : «وإخوانى» .
(٣) الديوان : « بشآم أو خرسان »
(٤) ديوانه ١٠٥ ، ١٠٦ ، الأغانى ١٠ : ٢٤٣

قوله الرتب : أى المنازل الرفيعة . مثل كواكب الجوزاء ، أى فى الإضاءة والرفعة . والجملة المتناسبة الأجزاء ، أى المتّفقة ، يعنى مقاديرهم فى الفضل وغيره متساويةً لاتفاضل بينهم ، كالجملة التى لامزية لبعضها على بعض ، وأقل جملة حسابية أجزاؤها متناسبة لا كسر فى بعضها ولها النّصف والثلث والربع والخمس والسدس والسبع والثمن والتسع والعشر هى ألفان وخمسمائة وعشرون ، نصفها ألف ومائتان وستون وثلثها ثمانمائة وأربعون ، وربعها ستمائة وثلاثون ، وخمسها خمسمائة وأربعة ، وسدسها أربعمائة وعشرون وسبعها ثلثمائة وستون ، وثمنها ثلثمائة وخمسة عشر ، وتسعها مائتان وثمانون وعشرها مائتان واثنان وخمسون .

قوله : أبهجَنى، أى أفرحنى أحْمَدْت: وجدته محمودا . الطّالع: النجم الذى يسعد به صاحبه وينحس على زعمهم . طفقت : أخَذْت . أفيض بقِدْحِى : أضرب بسهمى ، وهذا من فعل الميسر : وأراد أنه يمشى كلامُه مع كلامهم ويَدْخل مداخَلهم . أدّتنا : أوصلتنا . شجون المفاوضة . طرق المراجعة فى الكلام ، والشجون فى الكلام ، تداخله،واختلاط بعضه ببعض ، والتفاوض : الاندفاع فى الحديث ، وفى المثل : الحديث ذو شجون ، أى ذو فنون وأصلُه من الشجر المشجون ، وهو الشّجر الذى التفّ بعضُهُ ببعض . التّحاجِى : التغاطن . المقايضة : المعاوضة والمقارضة . الكرَى : النوم . فات ، بمعنى مات ، وأراد أنّ هذا النوع من الألغاز هو أن يُؤتَى بلفظٍ عوضا من لفظ آخر يتوارد معه على معنى واحد ، والمماثلة التى بينهما إنما هى موافقة المعنى . نجلو : نكشف . السها : نجم خفىّ، وقرن السها فى خفائه مع القمر فى ظهوره ، وإنما يشير إلى قولهم فى المثل : أريها السها وترينى القمر ، وأواد أنهم يأتون بلفظة ظاهرة المعنى ، وأخرى خفية ، فلا يتمّ لهم شىء .

* * *

وبينا نحنُ نَنْشرُ القَشيبَ والرَّثَّ ، ونَنْشُلُ السَّمِينَ والغثَّ ، وغَلَ عَلَيْنَا شيخٌ قدْ ذَهَبَ حِبْرُه وسِبْرُه ، وبقِيَ خُبْرُهُ وسَبْرُه ؛ فمَثَلَ مُثولَ مَنْ يَسْمَعُ ويَنْظُرُ ، ويلتقِطُ ما تَنْثُر ، إلى أن نُفِضَتِ الأَكياسُ ، وحَصْحَصَ الْيَاسُ .

فَلَمَّا رأى إجبالَ القرائح ، وإكداءَ المائح ، جَمَعَ أذيالَهُ ، وولّانا قَذَالَه ، وقال : ما كُلُّ سَوْدَاءَ تَمْرَة ، ولا كُلُّ صَهْبَاءَ خَمْرَة ، فاعْتَلَقْنَا بِهِ اعْتِلاقَ الحِرباءِ بالأعْوادِ ، وَضَرَبْنَا دون وِجْهَتِهِ بالأسْدَاد ، وقلنا له : إنّ داءَ الشَّقِّ أن يُحَاصَ ، وإلاّ فالقِصَاصَ القِصَاصَ ؛ فَلاَ تَطْمَعْ أنْ تَجْرَحَ وتَطْرَحَ ، وتُنْهِرَ الفَتق وتَسْرَح . فَلَوَى عِنَانَهُ راجعًا ، ثُمَّ جَثَمَ بِمَكَانِهِ راصِعًا ، وقال : أمَّا إذا استَثَرْتُمُونِي بالبحث ، فَلأَحْكُمُ حُكْمَ سُلَيْمَانَ فى الحَرْث .

* * *

القشيب : الثوب الجديد. الرّثّ : الخَلَق . ننشُل : نخرج النشيل ، وهو لحم يطبخ بلا تابل ثم يُنشل ، أى يُخرج بالمِنْشَل ، وهو حديدة معقّفة . ذهب حبره وسبره: هيئته ولونه ، قال الفراء : من قولهم : جاءت الإبل حسنة الإحبار والإسبار ، قال الأصمعى رحمه الله : هى الجمال والبهاء وآثار النعمة ، يقال: فلان حسن الحَبْر والسَّبْر ، إذا كان جميلاً حسن الهيئة ، وفى الحديث : يخرج من النار رجل قد ذهب حَبْره وسَبْره ، أى قد ذهب جماله وبهاؤه ، وسمِّى الحَبْر حَبْرًا لأنه يزين الكتاب ، ويحسن القرطاس ، وحَبَّرت الشيء زيّنته ، وقيل إنه سُمِّىَ حَبْرًا لأنه يؤثر فى القرطاس ، فيكون علامة فيما يقع فيه ، ويقال للأثر : حبرة وحُبار ،

والسَّبْر: الأصل واللون والهيئة والمنظر، والسَّبْر مايدلّ به على لون الدابة وكرمها، ويروى حِبره وسِبرُه، بكسر أوّلهما وفتحه، فإذا كسرا كانا اسمين، وإذا فتحا كانا مصدرين، وحَبْره علمه، وسَبْره قياسه. مثل: تمثّل قائما. الأكياس: أوعية الدراهم، ونفضت: ألقى مافيها، وأراد فراغ كلامهم. وحَضْحَض: تبيّن، اليأس: ضد الرّجاء. إجبال القرائح: انقطاعها عن الكلام. إكداء: صعوبة، وأصل هذا فى البئر، فأوّل مايرشُح من مائها هو القريحة، ثم نقل إلى الطّبيعة والذهن، وأجْبَل الحافر: إذا حال بينه وبين الماء جبل، وأكْدَى: حال بينه وبينه كُدْية، والجبل والكدية حجارة وصلابة تَعْرِض فى البئر، لايمكن حَفْرها معها، ثم يقال: أكدى أى قلّ خَيْرُه وأجبل الشاعر، أى انقطع شعره. وأكدى فلان عطائى، أى قطعه وقلّ خيره، ومنه قوله تعالى ﴿وأعْطَى قليلاً وأكْدَى﴾[1]. والماتح: المستسقى على فم البئر. والمائح: النازل إلى قَعْرها ليملأ الدّلاء ويفرّق بينهما بنقطتى الحرف الّذى قبل آخرها، فمتى كانتا فوق الحرف، فالمستسقى فوق البئر لكثرة الماء، ومتى كانتا تحته فالمستسقى فى قعر البئر ليملأ الدلو بيده، وذلك لقلّة الماء، وإذا تكاثرت الدِّلاء عليه، وكَثُر صياح النّاس عليه من رأس البئر، وكل يرغبه ليملأ دلوه، فيأخذ دلْوَ مَنْ لامال له فيضرب به رجا البئر، أى جانبه ليرتدع النّاس عنه، ثم يضرب مثلا للمُهان، قال الشاعر:

فلا يُرمَى بى الرَّجَوانِ إنّى ... أقلّ القوم مَنْ يُغْنِي مَكانِي[2]

وقالت جارية من العرب تستعطفه:

يأيّها المائحُ دلوِى دُونَكَا ... إنّى رأيْتُ النّاس يَحْمَدُونَكَا[3]

---

(١) سورة النجم ٣٤.

(٢) اللسان ـ رجا (٣) اللسان ـ ميح.

ومن أمثالهم : أبصر من المائح ياستّ للمائح .

وأنشد الفنجديهيّ :

يا مائح العين عُدِمْت الرَّدَى
من حوض هذى العين كَمْ تَسْتَقِى
مِنْ شيمةِ المـــاء انحدارٌ فِمْ ماء جفـــــونى أبدًا يَرْتَقِى

قوله : جمع أذياله : شمر ثيابه للقيام . قذاله : قفاه .

ما كلّ سوداء تمْرة ، مَثَل . والسوْداء تستعمل للتمرة والفحمة فيقول : ما كل الكلام سهل فتتعاطونه وما كلّ ماجئتم به بفائق فيدخل فى باب المقايضة ، وهو مثلٌ يضرب فى موضع النهمة .

والصهباء : من أسماء الخمر ، والشُّهبة أن تعلوَ الحمرَة شُقَرة وأصوله سود .

[الحرباء وما ورد فيها من الشّعر]

الحِرْباء : دويّبة تستقبل الشمس بوجهها إذا استوتْ فى كبد السماء ، وإنْ لم يتأتّ لها الفرصة بوجهها تململتْ وتقلّبتْ ، ولم تزل فى قلق حتى تميل الشمس ، فتستقبلَها ـ أعنى قُرْصَها ـ بوجهها حتى تغرب وهى فى طول يومها ، لاتأكل شيئا ، فإذا جاء الليلُ ذهبت تبغى ماتأكل ، والأنثى منها حرباءة .

وقال أبوعبيدة : الحرباء تستقبل الشمس برأسها أبدا ، يقال : إنما تفعل ذلك لتقىَ جَسَدَها برأسها ، وقيل: الحرباء ذكَر أمّ حُبين، وفى صدره استرخاء وقُرْب من الأرض ، فإذا حميت الأرض بالشمس خاف على صدره أن تحرِقه الأرض لازوقه بها ، فيصعد على عود شجرة ، فليتزمه بيديه ، ويجعله بينه وبين الشمس ، ويضرب به المثل فى التّشبث بماتعلّق به ، وذلك أنّه إذا تعلّق بعود التزمه ، وقبضَ عليه فلا يفارقه ، حتى يستوثِقَ من آخر ، فيُضرب المثل به ، فيقال : أحزم من الحرباء . وقال قيس بن الحدادية :

بانت سعادُ فأمسى القلبُ مشتاقَا وأفلقتها نوى الإزماع إقلاقَا[1]
واحتثَّ حاديهمُ بزلاً مخيّسةً كُوم الذّرا مدد الأعضاد أفياقَا
أنَّى أتيحَ لهـا حِرباء تَنْضُبَةٍ لايرسل الساق إلا مُمْسكا ساقَا

والساق : ساق الشجرة ، والتَّنْضب : شجر يتعلّق بأعواده الحرباء ، فيقال حرباء تنضبه ، كما يقال : ذئب غَضَى . وقال الأزهرى رحمه الله تعالى : الحرباء دويّبة على خِلْقَةِ سام أبرص ، ذات أربع قوائم دقيقة الرأس مخطّطة الظهر ، وأكثر الشعراء من ذكر الحرباء وتشبيهها ، ومن جَيّد ذلك قول ذى الرّمّة :

ودوّيّةٍ جَرْدَاء جَـــدّاء خيّمت
بها هفوات الصّيف من كلّ جانبِ[2]
كأنّ يدىْ حربائها مقشّمسًا يَدَا مذنبٍ يستغفر الله تائبِ

وقال آخر :

وقد جعل الحرباءُ يصفرّ لونُه ويخضرّ من لفح الهجير غَباغبُه[3]
ويشبَح بالكَفّين حتى كأنه أخو فجوة عالَى به الجِذْعَ صالبُه[4]

وقال أيضاً :

يظلّ بها الحرباء للشمس مائلاً على الجذلِ إلاّ أنه لايُكَبِّرُ[5]
إذا حوّل الظلُّ العشيّ رأيتَهُ حنيفاً وفى قرن الضّحَى يتنصّرُ

---

(١) البيت الثالث ، من أبيات ثلاثة فى ديوان أبى دواد الإيادى ٣٢٦ .
(٢) ديوانه ٧٨ .
(٣) ديوانه ٤٧ ، وفى ط : « عباعبه » ، وصوابه من الديوان ، والغباغب : الجلد ، واحده غبغب .
(٤) يشبح : يمد كفيه ، كأنه مصلوب .
(٥) ديوانه ٢٢٥ ، وحماسة ابن الشجرى ٢٢٦ ، وفى ط : « الجذع » ، وما أثبته من الديوان .

غدا أكهب الأعلى وراحَ كأنه
من الضّحّ واستقباله الشمس أخضرُ[1]

أخبر أنه يدور مع الشمس فى وقت الزوال ، حتى تكون الشمس فى حذاء القبلة ، فكأنّه باستقباله لها فى ذلك الوقت مُسْلِمٌ يصلّى لها ، وفى الضّحى تكون فى وجه المشرق ، فكأنّه نصرانىّ فيستقبلها بصَلاته .

قال ابن الرومىّ :

ما بالُها قد حَسُنَتْ ورقيبُها أبداً قبيحٌ قبـــح الزُّقَباء
ماذاك إلاّ أنّها شمسُ الضحى أبدا يكون رقيبها الحرباء

قوله : وجهته ، أى جهته . والسّدّ : الحاجز بين الشيئين . يحاص : يخاط ، ويقال : حاص ثوبَه وعين صقره وشقوق رجليه حَوْصاً وحياصة : خاطها ، وقيل : الحوص : الخياطة بعد رقعة ، ولا يكون إلا فى جلد ، وأنشد يعقوب :

ترى برجليه شُقُوقا فى كَلَعْ من بارئٍ حِيصَ ودامٍ مُنْسَلِعْ[2]

الكَلَع : الوسخ ، ومنسلع : متشقق . القصاص : أخذ الحق فى الجنايات . وتنهر : توسّع فتره كالنّهر . الفَتْق : الخرق . وتسْرَح : تذهب . لوى عنانه : أماله وعَطفه . جثم : برك . راصعا : لاصقا بالأرض والرّصَع : تباعد مابين الركبتين ، ورصع بالشىء يرصَع رُصوعاً إذا لازمه . استثرتمونى : طَلبتمونى واستخرَجتُم ماعندى . والبحث : المناقشة فى السؤال ، وأصله الصّيد تقول : استثرتُ الصيدَ ؛ إذا بحثتُ عليه حتى تقيمه من مرقده .

[قصة سليمان فى الحرث]

قوله : حكم سليمان فى الحرث . كان سليمان عليه السلام ، فيما ذكروا

(١) أكهب : أغبر إلى السواد . والضح : الشمس ، وقيل الضح : ما طلعت عليه الشمس
(٢) اللسان ـ كلع ، ونسبه وآخر إلى حكيم بن معية الربعى .